الباب الرابع

الآخرة

obeikandl.com

obeikandl.com

البعـــث

يقول الإمام الطحاوى (ونؤمن بالبعث، وبجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط، والميزان يوزن به أعمال المؤمنين من الخير والشر، والطاعة والمعصية، والجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان ولا يبيدان، وان الله تعالى خلق الجنة والنار وخلق لهما أهلا، فمن شاء إلى الجنة أدخله فضلا منه ومن شاء منهم إلى النار أدخله عدلا منه، وكل يعمل لما قد فرغ منه، وصائر إلى ما خلق له.

فائدة الدعاء للأموات

وفى دعاء الأحياء للأموات وصدقتهم منفعة للأموات، والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات)

نتحدث هنا عن البعث بما يتضمنه من الجزاء على جانبيه: فى الجنة أو فى النار .

ففى صحيح البخارى بسنده عن عدى بن حاتم قال قال رسول الله "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة"، وفى رواية أخرى زاد فيه "ولو بكلمة طيبة".

وقد تحدثت سورة الصافات عن أن المنكرين للبعث - فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك فى جميع العصور - يحركهم لذلك استخفاف سلوكى، مقرون بخفة عقلية .

وقد جاء ذلك ضمن قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

فهم أمام أخطر المسائل: يتضاحكون ويسخرون،ويتنادون لإشاعة السخرية بين الناس.

وهم أمام حقيقة البعث الذى هو جزء من حقيقة الخلق: يتعالمون، أو يتغابون إذ يزعمون: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

وقد استدل القرآن الكريم على البعث بالأدلة العقلية لمن يريدونها حيث ركزها فى آخر سورة يس:

﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾: فالقادر على البدء قادر على الإعادة.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾: فهو القادر على أن يخرج - تحت أعينكم - الشيء من نقيضه.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾: فالقادر على الأكبر قادر على الأصغر.

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾: فهو الخالق بغير احتياج إلى مادة أو زمن.

إن المنكرين يبنون موقفهم على الزعم بأن العقل البشرى من حقه أن ينكر ما لا يعرفه.

ويرد القرآن على أمثال هؤلاء، حيث يلفت أنظارهم إلى أنهم يعرفون الكثير من أمثال البعث فى بيئتهم: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ ٥-٧ الحج .

وتلفت سورة الصافات أنظارهم إلى حقيقة الخلق فى أنفسهم وفى العالم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾

فهل ينكر العقل حقيقة الخلق لأنه لا يمكنه أن يعرف كيف يتم التخليق؟

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ .

فلينظر الإنسان إلى خروج العسل من النحل.

وإلى خروج اللبن من الثدى .

وإلى خروج الشجرة الخضراء من بين الماء والطين .

وإلى خروج الزهرة الملونة من الشجرة الخضراء .

وإلى خروج الفاكهة الحلوة من فم الزهرة الوادعة .

وإلى الأظافر تنبت على أطراف الأصابع .

وإلى الشعرة السوداء تخرج من جلد الرأس.

فلينظر الإنسان إلى الأرض تدور فى فلكها حول الشمس .

وإلى الشمس تدور فى فلكها مع المجموعة الشمسية حول مركز فى المجرة .

وإلى المجرة تدور فى فلكها المرسوم بين المجرات الدائرة .

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من خلقنا من بين الأمثلة التى تزخر بها الحياة،وتزخر بها الطبيعة . وهى بعث كلها؟!

لو أن إنسانا لم ير العسل يخرج من النحل أكان يجوز لعقله أن ينكره؟

أكان يمكن لعقله أن يتصوره؟ أكان يمكن لعقله أن يقترحه؟ أكان يمكن لعقله أن يصممه، وأن يضع له أسبابه وأن يستخرج منه نتائجه؟

أكان يجوز لعقله أن ينكره لأنه يعجز عن ذلك كله؟

لكن ذلك كله رأيناه ونراه يحصل مرات ومرات؟

وكيف يصح القول بأن الذى لا نراه يكون غير معقول ونرمى الكلام عنه بالسحر، فإذا حصل مرة أو مرات صار معقولا؟

يقول الدكتور نورمان بريل أستاذ علم الحيوان بجامعة ماكجيل بمونتريال بكندا فى كتابه " بزوغ العقل البشرى ": (إن الطفل حديث الولادة يبدو على الدوام من المعجزات لكل من يقع نظرهم عليه لأول مرة ... فهم يرونه ماثلا أمام أعينهم بوجوده الحاضر وإمكاناته الرهيبة ...)

إن العلم التجريبى نفسه يقدم لنا ظواهر يعرفها العلماء ويتعاملون معها دون أن يعرفوا سر الصنعة فيها: فى بناء الذرة، فى ظاهرة الضوء، فى ظاهرة الجاذبية، فى بناء الحياة، فى بناء الفلك، فى عملية الذكاء، فى عملية الوعى، فى عملية التذكر، فى عملية التخيل .

فى كل ذلك وغيره يمكن للعلماء أن يقوموا بدور الوصف لما يحدث، لكنهم لا يمكنهم أن يقوموا بدور التفسير أو التعليل .

والذى يصر على الإنكار لكل ما لا يعرف سر وجوده أو سر صنعته لا يمكنه أن يمارس الحياة .

إنه ليكون الأحق بالسخرية، إذ يكون أشبه بالنحلة التى ترفض الزهرة وتنكرها ولا تتعامل معها: لأنها لا تعرف مراحل إنتاج الزهرة . أو لأنها لا تتصور القصر الذى توجد فيه ..أو الأرض ..أو الشمس ..أو النهر .. أو الإنسان ..

كل أولئك الذين كان لهم دور فى إنتاج الزهرة .

ومن أنكر هذه الحقائق ولم يتعامل معها لأنه لا يعرف سر خلقها هو إذن عقل مريض فى نفس مريضة .

إن قدرة الله ...إن أحداث الطبيعة ...إن حقائق الخلق والإبداع، ما نرى منه وما لا نرى لا يخضع شئ منه لهذه العقول فى تلك النفوس ... إنه إنما يخضع لمن أحاط بعلمه وإرادته وإبداعه كل شئ

وهو سبحانه يضع أمامنا حقيقة البدء إجمالا لنسلم عن طريقها بحقيقة الإعادة إجمالا، أى بإرجاع الأمر كله إلى ظاهرة الخلق والإعادة، تلك الظاهرة الواقعة تحت أنظارنا فى كل حين:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ١٩ العنكبوت

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٢٠ العنكبوت، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ٢٩ الأعراف، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ ١٠٤ الأنبياء

﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ٤ يونس، ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ٣٤ يونس، ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ١١ الروم، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ٢٧ الروم

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٧٩-٨٥ المؤمنون

تلك الآيات جميعا تبرهن لنا على صحة البعث عن طريق النظر فيما يحدث أمامنا فى الواقع، وليس عن طريق الدخول فى مماحكات فلسفية

والواقع الذى يحدث أمامنا يرد على شبهات بعض الفلاسفة حيث يبين أن الشخص منا يستمر، وتستمر معه مسئوليته الأخلاقية، لأنه يظل هو هو طوال عمره بالرغم من أن جسده يتبدل ويتغير وينبعث جديدا باستمرار .بل نقول إنه – ما دمنا نتحدث عن الجسد – يموت باستمرار، ويبعث باستمرار .

وما أدق قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾: إنه يموت الآن وفى كل لحظة

ومن منا لا يعترف – إن أنعم النظر فى صور مسجلة من مسيرة حياته -: أن الجنين الذى كان مات ثم انبعث الطفل، وأن الطفل مات ثم انبعث الغلام، وأن الغلام مات ثم انبعث الشاب، وأن الشاب مات ثم انبعث الكهل، وأن الكهل مات ثم انبعث الشيخ، وأن الشيخ يقترب من نفس عتبة: الموت والانبعاث .

وهذا دليل أنه يبعث الآن – بعثا دنيويا – فى كل لحظة.

فهل ما زلنا بحاجة إلى دليل واقعى على البعث.

أليس هذا تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ ٥ الحج.

يقول الدكتور نورمان بريل - الذى سبقت الإشارة إليه - (فجسمك الحالى الذى يبلغ وزنه بين ٤٥-٩٠ كيلو جم أو أكثر . ليس هو الجسم الذى كان لك منذ وقت مضى، فكل نسيج وكل خلية إما أن يعاد بناؤهما، وإما أن يستبدلا على وجه الاطراد، سواء فى ذلك الجلد أو الدم، أو الشعر، أو العظام).

ثم يقول: (وأعجب شئ فى ذلك كله أنه بالرغم من هذا التبدل المستمر فى المادة التى يتكون منها جسمى فإننى أحس بأن شخصيتى ظلت مستمرة لم يطرأ عليها تبدل مناظر، ولا يزال الأصدقاء الذين كنت أقابلهم منذ عشرات السنين يعرفوننى)[1]

وأخبر القرآن الكريم عن بعث وقع:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ٢٦٠ البقرة

---

(١) بزوغ العقل الابشرى ص١٣

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٥٥-٥٦ البقرة

وما جاء عن إحياء الموتى على يد المسيح ﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ٤٩ آل عمران.

وما جاء عن أصحاب الكهف: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ ٢٥ الكهف.

وعن الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ ٢٥٩ البقرة.

إن الإخبار بالبعث كما جاء فى رسالة الأنبياء عليهم السلام **هو نوع من الإنذار** لا يصح للعقـــل البشرى أن يتردد فى التعامل معه والإيمان به، بشروط عملية وإلا كان مرتكبا لأشد أنواع الحماقة فيما يختص بمصيره الذاتى،ومصلحته الشخصية، كما هو الشأن فى أى إنذار، وبالتالى فى أخطر إنذار

إن التصديق إزاء الإنذار - بشروطه - يصنع موقفا يتلخص فى كلمتين: التصديق أو التكذيب.

التكذيب كما صنع أبو لهب

أو التصديق كما فعل أبو بكر .

وعلى كلٍّ أن يتحمل تبعة موقفه؟!

وتتلخص شروط التسليم للإنذار وفقا للمنهج العملى: فى أربع قواعد:

القاعدة الأولى: فى طبيعة الإنذار

القاعدة الثانية: فى مصدر الإنذار

القاعدة الثالثة: فى مورد الإنذار

القاعدة الرابعة: فى حامل الإنذار

أما عن القاعدة الأولى: فتعنى أن يكون هو الإنذار الأكبر، بمعنى أنه إذا تكاثرت الإنذارات كان للأكبر فيها أن يلغى الأصغر، وهنا نجد أن الإنذار الذى جاء فى رسالة الرسل الذين يمثلهم محمد صلى الله عليه وسلم هو الإنذار الأكبر على وجه الإطلاق، لكونه يضع أمامك التهديد بالعذاب الأكبر الخالد الأبدى ويعدك بالنعيم الأبدى .

قال الحسن البصرى فى قوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾: والله ما أنذر العباد بشيء قط أدهى منها. خرجه ابن أبى حاتم (ابن حبان)، وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ يعنى النار

وأما عن القاعدة الثانية: فتعنى أن يكون مصدر الإنذار هو المنذر الأكبر – ولو على قاعدة الافتراض – وهنا نجد فى رسالة الرسل أن الإنذار الذى جاءوا به لم يكن هو الإنذار الأكبر فحسب، ولكنه جاء صادرا من المنذر الأكبر، لأن الذى أصدره موصوف بأنه مالك الملك مالك يوم الدين، هو الموصوف بصفات الكمال على الإطلاق ولا يوجد فى ساحة الإنذارات المتعارضة إنذار جاء من مثله .

وأما عن القاعدة الثالثة عن مورد الإنذار: فتعنى أن لا يطلب منك الإنذار أن تقوم بعمل لا تملك منه شيئا بأن كان لا يتفق مع فطرتك، كأن يطلب منك الإنذار أن تحمل فوق كتفك عشرة أطنان، وإلا أعدمك، فهذا إنذار ساقط عمليا، وأجدر به أن يكون حكما بإعدامك منذ الآن، وليس عملا مطلوبا منك أن تقوم به، وهنا نجد فى رسالة الرسل – فى حدود ما نعرفه عن محمد صلى الله عليه وسلم – أنهم جاءوا إليك بإنذارهم ليطلبوا منك ما يتوافق مع فطرتك أولا ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وما يتحرك بك إلى الأفضل ثانيا، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾

أما عن القاعدة الرابعة: فتعنى أن يكون حامل الإنذار نموذجا لتطبيق واجبات الإنذار وآدابه، وهنا نجد فى رسالة الرسل: أنهم إذ جاءوا بالإنذار الأكبر من المنذر الأكبر كانوا وهم حملته يمثلون المثال الواقعى لهذا التطبيق، لقد كان رسول الله صلى

الله عليه وسلم على مستوى الإنذار الذى جاء به، وهنا تنطق سيرته صلى الله عليه وسلم باكتمال الشرط المطلوب فى هذه القاعدة [1].

إنه يكفى المنذر أن يكون قد أبلغك،وأنت بعد ذلك مسئول عن نفسك

إذا صدقت فلنفسك، وإذا كذبت فعليها .

إن الإنذار هنا نوع من الكلام ربما كان على علماء البلاغة أن ينشئوا له نوعا جديدا غير ما وضعوه من نوعى الإنشاء والخبر .

إنه ربما يوضع فى نوع جديد يسمى النوع الإنذاري

وهذا النوع الإنذارى لا يتعامل معه بغير التصديق بعد تحقق الشروط العملية السابقة

وقد حسم رجل مؤمن من آل فرعون القضية على أساس هذا المنهج إذ قال لقومه: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ ٢٨ غافر

ولقد حسم الإمام على رضى الله عنه الموقف فى هذا الباب بقوله لمن كان يماريه فى أمرالآخرة (إن كان الأمر كما زعمتَ تخلصنا جميعا، وإن كان الأمر كما قلتُ هلكتَ ونجوتُ ..)

ومع ذلك يستمر إنكار المنكرين خضوعا منهم للحالة النفسية التى يكشفها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ .

وهى حالة تدفع بهم إلى مقاومة الآيات باللجوء إلى السخرية:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

---

(١) أنظر المزيد من شرح هذه القواعد فى كتابنا " فلسفة الإنذار "، وكتابنا " مداخل إلى العقيدة الإسلامية "

هكذا تأتى مقاومتهم للآيات فى أسلوب ساخر،ومن هنا ساقت الآيات الحقيقـــة إليهم فى صورة تقريرية مسوقة بالسخرية، أيضا: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾.

ثم يقول بعد ذلك: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

عبر عن سوقهم إلى الجحيم بلفظ فاهدوهم: إمعانا فى السخرية منهم .

وعبر عن كفرهم بأنهم ظلموا ؛ هكذا بأوسع إطلاق:

لأنهم ظلموا الله بعبادة الشريك . وظلموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب .وظلموا أنفسهم بإيرادها موارد الهلاك .

وإمعانا فى سخرية يستحقونها قابل ظلمهم ذاك مع ما يوحى به من جبروت بأن فصَّل مظـــاهر صغارهم وحقارتهم فى الآخرة، فقدمهم وهم يتلاومون فى الموقف، وكل منهم يحـــاول أن يتنصل من مسئولية ما حدث، بينما حقائق الموقف محيطة بهم، لا يجدى فيها تلاوم، أو تناصر، أو مهرب:

﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ .

وتتحدث آيات القرآن الكريم فى سورة الصافات فى مجال الزواجر والجزاء ... عن عذاب النار ونعيم الجنة.

وهى تبادر إلى ذكر العذاب، جريا مع سياق النظام الكونى المجعول بوضعه تعالى، وهو من ثم يتناول الخارجين على النظام .

فالخارجون على النظام وإن لم يلحقهم عذاب فى الدنيا كعذاب الشياطين المسترقين للسمع ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ يؤول بهم الأمر بعد البعث إلى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

وهم إذ يدخلون العذاب يدخلونه باقتناع ظاهر، من بَعد، مساو لاقتناع كافر، كان مستورا من قبل. يقولون: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾.

وهم يعترفون بأن دخولهم فى العذاب إنما كان لأمور ارتكبوها:

منها الطغيان ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

ومنها الإغواء ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾.

ومنها الاستكبار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ومنها الشرك ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾.

وفى النهاية ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وهنا لا ينتهى بهم المطاف بدخول النار، ولكنهم يكونون فى موضع الانفضاح أمام من كانوا يهزءون بهم فى الدنيا: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

وأخيرا فإن الآيات فى تلك السورة - بعد أن تعطى لنا ملامح العذاب للمكذبين للآخرة، الطاغين، المشركين، المستكبرين، الغاوين، .... تقرر أن عباد الله ناجون، حيث يقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ الصافات ٤٠-٤٩

أهمية التذكير بالنار فى المنظومة الإسلامية

تقوم التربية الإسلامية - والدعوة الإسلامية كذلك - على محور التذكير بالنار، وهو محور أساسى فى المنظومة الإسلامية: عقيدة وشريعة وتربية ودعوة وأخلاقا.

خلافا لمن يبدون اليوم تأففا من هذا الأساس، باسم دعوات فارغة، متجاهلين

أن الدعوة الإسلامية فى تركيزها على محور التذكير بالنار إنما تدخل من باب الرحمة بالإنسان: خوفا عليه من أن يتعرض لحادث النار، وهو حادث ينتظم ضمن النظام الإلهى للكون، ولا منجاة لأحد منه إلا أن يلجأ إلى واضع هذا النظام وصانع سفينة النجاة فيه .

تؤكد الآيات القرآنية هذا التذكير

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ آل عمران ١٩٠-١٩٢

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ آل عمران ١٥- ١٦

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ الفرقان ٦٣- ٦٦

وقال تعالى: ﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ المدثر ٣١-٣٧

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ المعارج ٢٧ - ٢٨

وقال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ الطور ٢٥-٢٧

قال بعض الصالحين: ينبغى لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار، لأن أهل الجنة قالوا ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ فاطر ٣٤ ، وينبغى لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ الطور ٢٦

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يستعيذ من النار، ويأمر بذلك فى الصلاة وغيرها والأحاديث فى ذلك كثيرة .

قال أنس رضى الله عنه: كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ البقرة ٢٠١ ؛ خرجه البخارى .

وفى كتاب النسائى عن أبى هريرة أنه سمع النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اللهم إنى أعوذ بك من حر جهنم). وعن عدى بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (اتقوا النار) قال وأشاح ثم قال (اتقوا النار) ثم أعرض وأشاح ثلاثا حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) خرجاه فى الصحيحين .

وخرج البزار والطبرانى من حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (أنا آخذ بحجزكم فاتقوا النار، اتقوا النار، اتقوا الحدود، فإذا مت تركتم، وأنا فرطكم على الحوض، فمن ورد قد أفلح، فيؤتى بأقوام ويؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: رب أمتى، فيقول: إنهم لم يزالوا بعدك يرتدون على أعقابهم .)

وخرج الطبرانى وغيره من طريق يعلى بن الأشدق عن كليب بن حزن قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اطلبوا الجنة جهدكم واهربوا من النار جهدكم، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة

اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات، فلا تلهينكم عن الآخرة) .

وخرج مسلم فى صحيحه من حديث أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ("والذى نفسى بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " قالوا: وما رأيت يا رسول الله قال " رأيت الجنة والنار" .)

وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لما كسفت الشمس رأيت النار، فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع منها).

وفى التخويف من النار للحافظ ابن رجب الحنبلى: أنه روى الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا (لو أبرزت النار للناس ما رآها أحد إلا مات) وروى موقوفا .

وفيه أنه خرج أبو يعلى الموصلى فى مسنده وغيره من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه خطب فقال: (لا تنسوا العظيمتين الجنة والنار)، ثم بكى، حتى جرت وبلت دموعه جانبى لحيته، ثم قال (والذى نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم عن الآخرة لمشيتم إلى الصعدات، ولحثيتم على رؤوسكم التراب) .

وفى المستدرك على الصحيحين للحاكم بسنده عن زياد بن أبى سودة قال: كان عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه على سور بيت المقدس الشرقى يبكى، فقال بعضهم: ما يبكيك يا أبا الوليد؟ فقال من ها هنا أخبرنا رسول الله أنه رأى جهنم، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .

وفى سنن أبى داود و ابن ماجة عن جابر: " أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل كيف تقول فى الصلاة؟ قال أتشهد ثم أقول "اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ "، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم " حولها فدندن [1]"، وخرجه البزار ولفظه " وهل أدندن أنا

---

(١) الدندنة: التلفظ بصوت خفيض بكلمات غير واضحة فى السمع، وحولها أى: حول النار .

ومعاذ إلا لندخل الجنة، ونعاذ من النار"، وفى مسند الإمام أحمد مثله، بإسناد منقطع عن سليم الأنصارى .

وروى ابن رجب فى كتابه " التخويف من النار " بسنده عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: قال (إنما يدخل الجنة من يرجوها، ويجنب النار من يخافها، وإنما يرحم الله من يرحم) وخرجه أبو نعيم وعنده: " وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ".

وهو إنذار الرحيم وتحذير الحفيظ العليم:

إنه ما أكذب هؤلاء الذين يتظاهرون بالرحمة عن طريق الاستنكاف من ذكر النار.

وما أصدق الحكمة السائرة:

صديقك من صدَقك لا من صدَّقك

من أضحكك أضحك الناس عليك، ومن أبكاك أبكى الناس من أجلك .

وينقلنا ذلك إلى ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها)

وفى رواية لمسلم بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثلى كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب .. يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، قال فذلكم مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار هلم عن النار فتغلبونى وتقتحمون فيها).

وفى رواية للإمام أحمد بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مثلى ومثلكم أيتها الأمة كمثل رجل أوقد نارا بليل، فأقبلت إليها هذه الفراش والذباب التى تغشى النار، فجعل يذبها ويغلبنه إلا تقحما فى النار، وأنا آخذ بحجزكم أدعوكم إلى الجنة، وتغلبونى إلا تقحما فى النار) .

وخرج الإمام أحمد أيضا من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله

وسلم قال: (إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش والذباب)

والخوف من عذاب الآخرة لا ينجو منه أحد، ولو كان من المقربين،حتى الأنبياء والملائكة .

فقد توعد الله سبحانه خاصة خلقه على المعصية قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ الإسراء ٣٩

وقال فى حق الملائكة المكرمين: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء ٢٩

وفى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: (استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، قال المسلم: والذى اصطفى محمدا على العالمين، فقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودى، فذهب اليهودى إلى النبى فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبى المسلم، فسأله عن ذلك، فأخبره، فقال النبى: لا تخيرونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى، أو كان ممن استثنى الله) .

وفى رواية أخرى للبخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: (بينما رسول الله جالس جاء يهودى، فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهى رجل من أصحابك، فقال: من؟ قال رجل من الأنصار، قال: ادعوه، فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف والذى اصطفى موسى على البشر، فأخذتنى غضبة ضربت وجهه، فقال النبى: لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أكان فيمن صعق أم حوسب بصعقة الأولى) .

قال الحافظ ابن رجب فى كتابه "التخويف من النار": وثبت من حديث عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث الشفاعة قال (فيأتون آدم) - أى يطلبون منه أن يتقدم بطلب الشفاعة -، وذكر الحديث وقال: (فيقول آدم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه أمرنى بأمر فعصيته فأخاف أن يطرحنى فى النار، انطلقوا إلى غيرى نفسى نفسى) وذكر فى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى مثل ذلك، كل منهم يقول: (إنى أخاف أن يطرحنى فى النار) خرجه ابن أبى الدنيا عن أبى خيثمة عن جرير عن عمارة به، وخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى خيثمة إلا أنه لم يذكر لفظه بتمامه، وخرجه البخارى من وجه آخر بغير هذا اللفظ .

وفى كتاب ابن رجب قال: قال عمر رضى الله عنه: (لو نادى مناد من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم، إلا رجلا واحدا لخفت أن أكون أنا هو) خرجه أبو نعيم، وخرج الإمام أحمد من طريق عبد الله بن الرومى قال: بلغنى أن عثمان رضى الله عنه قال (لو أنى بين الجنة والنار ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتها أصير)

إن تراثنا من عصر بناء أمتنا فى عصورها المجيدة لمليء بالخوف من النار، حيث تم صنع ضمير هذه الأمة القائم على التقوى، رغم أنف المعادين لهذا المنهج وجهلهم بأسسه:

ففى كتاب الحافظ بن رجب الحنبلى " التخويف من النار " رواية عن الحسن قال: كان عمر رضى الله عنه ربما توقد له النار ثم يدنى منها يديه، ثم يقول لنفسه: (يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر)

وفيه عن ابن السماك قال: قطع قلوبَ العارفين بالله ذكر الخلودين الجنة والنار .

وفيه عن بكر المزنى أن أبا موسى الأشعرى خطب الناس بالبصرة فذكر فى خطبته النار، فبكى حتى سقطت دموعه على المنبر، قال: وبكى الناس يومئذ بكاء شديدا .

وفيه عن إبراهيم بن محمد البصرى قال: (نظر عمر بن عبد العزيز إلى رجل عنده متغير اللون، فقال له: ما الذى أرى بك؟ قال: أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين إن

شاء الله، فأعاد عليه عمر، فأعاد عليه الرجل مثل ذلك ثلاث مرات، فقال: إذا أبيت إلا أن أخبرك فإنى ذقت حلاوة الدنيا، فصغر فى عينى زهرتها وملاعبها، واستوى عندى حجارتها وذهبها، ورأيت كأن الناس يساقون إلى الجنة، وأنا أساق إلى النار، فأسهرت لذلك ليلى، وأظمأت له نهارى، وكل ذلك صغير حقير فى جنب عفو الله وثواب الله عز وجل، وجنب عقابه .)

وهذا الكلام – كما يقول الإمام ابن رجب - يشبه حديث حارثة المشهور وهو حديث روى من وجوه مرسلا، وروى مسندا متصلا من رواية يوسف بن عطية الصفار وفيه ضعف عن ثابت عن أنس: (أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لشاب من الأنصار: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنا بالله حقا، قال: انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، وكأنى بعرش ربى بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعادون فيها، قال أبصرت فالزم، عبدٌ نور الله الإيمانَ فى قلبه)، والمرسل أصح.

وفيه: وقال أحمد بن أبى الحوارى حدثنا على بن أبى الحر قال: أوحى الله إلى يحيى بن زكريا عليه السلام: يا يحيى وعزتى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب جسمك، ولزهقت نفسك اشتياقا، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لبكيت بالصديد بعد الدموع، وللبست الحديد بعد المسوح .

وفيه أنه ذكر ابن أبى الدنيا بإسناده عن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز ساكتا وأصحابه يتحدثون، فقالوا: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت مفكرا فى أهل الجنة، كيف يتزاورون فيها، وفى أهل النار كيف يصطرخون فيها ثم بكى .

وفيه عن مغيث الأسود أنه كان يقول: (زوروا القبور كل يوم بفكركم، وتوهموا جوامع الخير كل يوم فى الجنة بعقولكم، وشاهدوا الموقف كل يوم بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة والنار بهممكم، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار، ومقامعها، وأطباقها) .

وفيه عن صالح المرى أنه قال: (للبكاء دواعى الفكرة فى الذنوب، فإن أجابت على ذلك القلوب، وإلا نقلتها إلى الموقف، وتلك الشدائد والأهوال، فان أجابت إلى ذلك، وإلا فاعرض عليها التقلب بين أطباق النيران) .

وفيه عن أبى سليمان الدارانى: قال خرج مالك بن دينار بالليل إلى قاعة الدار، وترك أصحابه فى البيت، فأقام إلى الفجر قائما فى وسط الدار، فقال لهم: إنى كنت فى وسط الدار خطر ببالى أهل النار، فلم يزالوا يعرضون على بسلاسلهم وأغلالهم حتى الصباح .

وفيه أنه كان سعيد الجرمى يقول فى وصف الخائفين: (إذا مروا بآية من ذكر النار صرخوا منها فرقا، كأن زفير النار فى آذانهم، وكأن الآخرة نصب أعينهم) .

وفيه أنه قال الحسن: (إن لله عبادا كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار فى النار معذبين)، وقال أيضا:

(والله ما صدق عبد بالنار قط إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره لم يصدق بها حتى يهجم عليها) .

وفيه أنه قال ابن عيينة، قال إبراهيم التيمى: (مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسى: أى شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا، قال فقلت: فأنت فى الأمنية، فاعملى) .

وفى حلية الأولياء لأبى نعيم بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: (قلت ليزيد بن مرثد: مالى أرى عينك لا تجف؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله أن ينفعنى به قال: يا أخى إن الله قد توعدنى إن أنا عصيته أن يسجننى فى النار، والله لو لم يتوعدنى أن يسجننى إلا فى الحمام لكنت حريا أن لا تجف لى عين، قال: فقلتَ له: فهكذا أنت فى خلواتك؟ قال وما مسألتك عنه؟ قلت عسى الله أن ينفعنى به، فقال: والله إن ذلك ليعرض لى حين أسكن الى أهلى، فيحول بينى وبين ما

أريـد، وإنه ليوضع الطعام بين يدى، فيعرض لى، فيحول بينى وبين أكله، حتى تبكى امرأتى،ويبكى صبياننا، ما يدرون ما أبكانا، ولربما أضجر ذلك امرأتى، فتقول: يا ويحها ما خصصت به من طول الحزن معك فى الحياة الدنيا، ما تقر لى معك عين) .

وفى التخويف من النار لابن رجب: قال يوسف بن عطية عن المعلى بن زياد: كان هرم بن حيان يخرج فى بعض الليالى وينادى بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها، وعجبت من النار كيف نام هاربها، ثم يقول: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ الآية الأعراف ٧٩ .

وقال أبو الجوزاء: (لو وليت من أمر الناس شيئا اتخذت منارا على الطريق وأقمت عليها رجالا ينادون فى الناس: النار النار، خرجه الامام أحمد فى كتاب الزهد) .

وخرج ابنه عبد الله فى هذا الكتاب أيضا باسناده عن مالك بن دينار قال: "لو وجدت أعوانا لناديت فى منار البصرة بالليل: النار النار". ثم قال: "لو وجدت أعوانا لفرقتهم فى منار الدنيا: يا أيها الناس النار النار"

فأين نحن اليوم من هذا المنهج وهذه التربية؟ ثم نتباكى على اللبن المسكوب ونتساءل فى بلاهة: ماذا حدث؟

حدث أن خلعنا ذاتنا فوقع بعضنا فى تيه البحث عن الذات، وخبط المذاهب والضلالات .

المنطق العملى فى الإنذار

هكذا تم بناء الأجيال البناءة التى أقامت الحضارة الإسلامية فى صدر الإسلام، ثم تسرب إليهم المنهج الفلسفى اليونانى مع الغزو الفكرى فى مرحلته الأولى . وتم بذلك جزء من تزييف وعى المسلم ووجدانه وإبعاده عن منهله الصحيح، واستمر هذا التزييف إلى اليوم، وترتب على هذا التزييف التعتيم على ذكر النار . وتسخيف الوعاظ الذين يشغلون الناس بها .

تم تزييف العقل الإسلامى بجره إلى التأثر الكلامى الفلسفى بمشوار عقلى طويل: له صعوبته، وله سلبياته أيضا [1]

مشوار طويل: فى البحث فى العقل نفسه كأداة للمعرفة، وشروطه، وميادينه ونتائجه، والبحث فى أول واجب على المكلف، هل هو النظر أو الشك؟ ثم البحث فى العالم هل هو قديم أو حادث، فإذا كان قديما كيف يكون مخلوقا، وإذا كان حادثا كيف حدث بغير تغير فى الذات الإلهية؟ فى إثبات أن كل حادث لا بد له من محدث، وأن مالا يخلو من الحوادث فهو حادث، وفى إبطال الدور والتسلسل، وفى صفات الله وعلاقتها بالذات، وفى دلالة المعجزة: هذا كله قبل الإيمان بالسمعيات ومنها الآخرة والجنة والنار؟؟

وكان لا بد من نقد هذا المنهج النظرى وفى هذا يقول الفيلسوف الألمانى الشهير كانت فى نقده للعقل النظرى "لا ينبغى أن نقلل من الخدمات التى يقدمها النقد إلى علم اللاهوت، فهو يحرره من حكم التأمل الدجماطيقى، وبذلك يضعه فى مأمن تام بعيدا عن ضربات الخصوم، ولقد كانت الميتافيزيقا الدارجة تمنيه بأن تمد إليه يد المساعدة، ولكنها كانت غير قادرة على الوفاء بعهدها، وفضلا عن ذلك فإن علم اللاهوت الذى يريد أن يستعين بالدجماطيقية كان يساعد أعداءه على التسلح ضده)[2]

كان لا بد من نقد هذا المنهج النظرى الذى عطل السمعيات منهجيا إلى آخر المطاف، بينما أن الذاتية الإسلامية اعتمدت على شيء مختلف تماما: على المنهج العملى، العقل العملى، منذ البداية التى كان فى أولها الإنذار بالنار .

إننا سوف نبين هنا[3] أن ما جاء فى العقيدة الإسلامية من الإنذار بالنار يقدم

---

(١) انظر كتابنا " الأسس المنهجية فى بناء العقيدة الإسلامية " فى نقد نظرية المعرفة عند المتكلمين، نشر دار الفكر العربى بالقاهرة .

(٢) انظر كتابه " مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن ان تصير علما " ترجمة نازلى إسماعيل حسين والدكتور عبد الرحمن بدوى، نشر دار الكاتب العربى للطباعة النشر ١٩٦٨ م

(٣) أنظر كتابنا " الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية " نشر دار الفكر العربى بالقاهرة عام ١٩٧٨، وكتابنا " فلسفة الإنذار فى الإسلام " وكتابنا " مداخل إلى العقيدة الإسلامية " و " بحوث فى الفلسفة " لطلبة كلية أصول الدين، وغيرها

منهجا أصوليا متكاملا يقوم على النظرة العملية والتى لا صلة لها بمواريث الفلسفة اليونانية أو ما يسمى الفلسفة الإسلامية.

إنه المنطق العملى الذى جاء به الإسلام وربى عليه أتباعه الذين قاموا بأعباء الدعوة وبناء المجتمع والحضارة ..

فى قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه النسائى فى السنن الكبرى بسنده عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "اللهم إنى أسألك علما نافعا وأعوذ بك من علم لا ينفع"

وبسنده عن مكحول أنه دخل على أنس بن مالك فسمعه يذكر أن رسول الله كان يدعو يقول "اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وارزقنى علما تنفعنى به".

وفيما رواه مسلم فى صحيحه بسنده عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله يقول، كان يقول (اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها .)

وفيما جاء من نهيه صلى الله عليه وسلم عن الجدل النظرى حول القضاء والقدر، فيما رواه البخارى بسنده عن على رضى الله تعالى عنه قال: (كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله،فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد وما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة، قال رجل: يا رسول الله؛ أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل فسنيسره للعسرى)

وفى رواية أخرى له زاد (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)

وفيما رواه الترمذى فى سننه بسنده عن على قال: بينما نحن مع رسول الله وهو ينكت فى الأرض إذ رفع رأسه إلى السماء ثم قال: " ما منكم من أحد إلا قد علم - وقال وكيع إلا قد كتب - مقعده من النار، ومقعده من الجنة، قالوا أفلا نتكل يا رسول الله قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له .) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

وفيما جاء فى المأثور من تراثنا وهو فى رأينا يمثل نظرية كاملة فى المعرفة: (العلم يهتف بالعمل فإن أجاب حل، وإلا ارتحل) (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، ووفقه الله فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما علم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار)

وفى حلية الأولياء لأبى نعيم بسنده عن يحيى بن معين عن أحمد بن حنبل عن يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم " .

قال الشيخ أبو نعيم رحمه الله: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبى صلى الله عليه وسلم فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته، وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل

وليس هذا المنطق العملى محفوفا بالخطر أو الشك أوالضعف، الذى قد يقع فيه أتباع العقل النظرى .

إن هؤلاء يقصمون ظهورهم بأوزار العقل النظرى وأثقاله التى حررنا الله منها، فى قوله تعالى فى سورة الانشراح (ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك)

إن أصحاب العقل النظرى يعصبون أعينهم بغشاوة العقل النظرى التى يشير إليها قوله تعالى فى سورة يس وهو يتحدث عن طبيعة الإنذار ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ

ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يس ١-١٢

وأية أغلال وأية سدود وأية أوزار وأية أثقال إن لم تكن هى الأنظار والتأملات التى يشترط عليك (النظريون) خوضها من خلال ركام فلسفات سقراط وأفلاطون وأرسطو والفارابى وابن سينا وابن رشد والقاضى عبد الجبار والعلامة عضد الدين؟ تلك التى خضعنا لسلطتها زمنا طويلا؟ وما نزال؟

إن طبيعة العقل النظرى وجدليته وسجن الذاتية الذى هو واقع فيه ناشئة بالضرورة عن محدوديته

إنها محدودية العقل البشرى المستقل، وهذا الأصل يستخلص بدهيا من طبيعة العقل البشرى من حيث كونه بشريا أى محدودا بحدود البشر فى قواهم المختلفة بالضرورة .

كما يستخلص من نقد العقل الخالص فى الفلسفة القديمة والإسلامية والحديثة .

كما يستخلص بدهيا من العقيدة الإسلامية بالنظر إلى اعتمادها على الوحى، ومن تفرد الرسول فى مخاطبته للعقل بالنسبة للفيلسوف .

كذلك فإنه يستخلص من رواد الفكر الإسلامى نفسه

والحد الذى يقف عنده العقل البشرى هنا هو الحد الذى يضمن له التواضع ويتطلب منه انتظار الهداية، ويسلك طريق المنطق العملى .

يقول الإمام الشاطبى (إن الله جعل للعقول فى إدراكها حدا تنتهى إليه ولا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلا إلى الإدراك فى كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت

مع البارى تعالى فى إدراك جميع ما كان وما لا يكون، وقد دخل فى هذه الكلية ذوات الأشياء جملة وتفصيلا،وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلا .

فالشيء الواحد من جملة الأشياء يعلمه البارى تعالى على التمام والكمال، بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحواله .

بخلاف العبد فإن علمه بذلك الشيء قاصر ناقص)[1]

وكان المتكلمون وما يزالون يستندون إلى العقل النظرى وهو ما عرفوه بأنه: (قوة النفس باعتبار تأثرها عما فوقها من المبادئ للاستكمال بالعلوم والإدراكات)[2]

ولكنهم مع ذلك كانوا يرون أنه فى الحكمة النظرية (التى هى كمال القوة النظرية بمعرفة أعيان الموجودات وأحوالها وأحكامها كما هى، أى على الوجه الذى هى عليه، وفى نفس الأمر ...) لابد من قيد هو (بقدر الطاقة البشرية) [3]

ومعنى هذا أنهم يقررون ضمنا أن القدرة البشرية عاجزة عن تحصيل الحكمة النظرية على الوجه المذكور، أى عاجزة عن تحصيل اليقين المطلق، لأن اليقين لا يكون بغير هذه الحكمة سواء كان ذلك فى المسائل التى يتعرض لها العقل البشرى فى مجموعها أو فى مسألة واحدة .

ومن المعروف أن اختبار صلاحية العقل للنظر فى الحكمة النظرية عملية موكولة للعقل البشرى نفسه حيث يكون هو الحاكم والمحكوم، وهذا يدل على بطلان هذا الاختبار منذ الخطوة الأولى .

ولا يكتسب هذا العقل شرعيته إلا بالاستناد على أساس سابق عليه، يؤخذ مأخذا تسليميا بحكم الضرورة العملية وبشروطها الخاصة، - التى ذكرناها سابقا - وهذا يسلمنا إلى اعتماد المنهج العملى فى طرح الموضوعات العقدية وهو منهج

---

(١) الاعتصام للإمام الشاطبى ج ٣ ص ٢١٦

(٢)أنظر شرح المقاصد للإمام التفتازانى ج٢ ص ٤٢ -٤٤

(٣) أنظر شرح المقاصد للإمام التفتازانى ج ١ ص ٤٥

يعتمد على ما سماه المتكلمون فيما بعد العقل العملى وهو (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات و تمييز المصالح من المفاسد لانتظام أمر المعاش والمعاد)[1]

والحد الذى يتوقف عنده العقل البشرى ولا يتخطاه هو التورط فى الموضوعات النظرية البحتة التى لا يترتب عليها عمل .

وهنا يأتى موضوع الآخرة – المعاد – فى صميم اختصاص العقل العملى .

وإذا كان من المتفق عليه إنسانيا أن المسائل العملية فى حياة الإنسان لا يجوز أن تطرح على مائدة العقل النظرى لما يؤدى إليه ذلك من تعطيل ودمار وخطر شديد على حياة الإنسان: كمسائل الحكم والسياسة والحرب والسلام والقضاء والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والشخصية، فإن العقيدة الدينية أولى بأن تستنقذ من براثن هذا العقل، لما يترتب على ذلك من خطر أشد، وهى أولى بأن يعاد طرحها على مائدة العمليات فى دائرة اختصاص العقل العملى، إذ يقدم الدين نفسه – من خلال الإنذار بالآخرة – على أنه تخيير ملزم ضرورى، ولا يمكننا أن نتخلص من مشكلة الاختيار ببقائنا فى حالة شك وتردد مرتقبين اليوم الذى تأتى فيه أدلة أكثر وضوحا وأقوى يقينا، فليس الشك فى هذه الحالة تجنبا للاختيار ولكنه اختيار للجهة الأخرى عن غير وعى، وذلك بحكم الضرورة العملية .

وهذه هى وظيفة العقل العملى الذى يبدأ مع هذه الضرورة مستهدفا مجانبة الخطر، مصطحبا معه يقين النجاة منذ الخطوة الأولى، وفقا لقول سيدنا على كرم الله وجهه لمن كان يماريه فى أمر الآخرة (إن كان الأمر كما قلتَ تخلصنا جميعا وإن كان الأمر كما قلتُ هلكتَ ونجوتُ) مرتقيا من هذا المدخل إلى سكينة الإيمان وفق مراتب: منهج التسليم، ومنهج الإنذار، بشروط المنطق العملى التى ذكرناها سابقا[2]

---

(١)أنظر (النظر والمعارف) للقاضى عبد الجبار ص ١٤٢ – ١٦٤ – ١٨٥ –٢٠٣، و (المحيط بالتكليف) له ص ٢٢ – ٢٣ و (شرح المقاصد) للإمام التفتازانى ج٢ ص ٤٥

(٢) أنظر مزيدا من توضيح ذلك فى كتابنا (مداخل إلى العقيدة الإسلامية)

والإسلام يبدأ وفقا لاسمه من التسليم . يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ١٩ آل عمران، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ ٢٢ لقمان .

العقل النظرى المسحور

إن طبيعة العقل النظرى وجدليته وسجن الذاتية الذى هو واقع فيه تعجزه عن التفرقة بين الحق والباطل وهو أشبه فى طبيعته بطبيعة السحر، حيث لا منطق يخرج بنا منه إلى الحقيقة إلا بضربة عملية من خارجه .

وهنا تأتى سيرة موسى عليه السلام مع فرعون بكاملها تقريرا لمأساة العقل النظرى المسحور: فى عجزه عن التفرقة بين الحقيقة التى تمثلها (الحية تسعى حقيقة) وبين الزيف (الحية تسعى سحرا)

وفى هذا جاءهم الحق فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ يونس ٧٧

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾.

وما ذا يفرق بين الحق والسحر؟

إنه ضربة الفعل .

إنها كلمة الله الفاعلة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ يونس ٨١-٨٢

ثم يأتى قوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ الشعراء ٤٥ - ٤٨

ومنذ هذه الواقعة التاريخية التى انتصر فيها فرعون للسحر انحرف التاريخ الإنسانى إلى مسارب العقل النظرى .

إذ ما ذا لو أن فرعون قبل رسالة العمل والفعل والحق التى جاء بها موسى عليه السلام؟

إذن لتغير وجه التاريخ

إذن لكانت مصر قد تطهرت من أوهام الوثنية فى عهد مبكر

وإذن لكانت قد تطهرت الإنسانية من أوهام العنصرية بذوبان اليهود فى أمة الإيمان المصرية الكبرى ..

وإذن لما عرفت الإنسانية شيئا يسمى اليهودية أو الصهيونية

تلك فرصة أفلتت من قبضة التاريخ

إذن لتغير وجه التاريخ بالاستجابة لكلمة الله الفاعلة

إذن لاجتمع الحق مع القوة

ولكن مصر تقاعست وتراجعت وتأخرت وأسقطت تاريخها من عهد موسى إلى عهد محمد عليهما السلام .

وبين العصرين أفرخت اليهودية وأفرزت

أفرخت الصهيونية العنصرية العالمية بما اجتمع لها اليوم من ضلال الأصولية المسيحية الصهيونية العالمية .

وتكرس منذ ذلك الوقت انفصال الحق عن القوة .

وضياع القوة فى مسارب الباطل

وانفصال المنطق النظرى الواهم عن المنطق العملى الفاعل .

وفى هذا الطريق سار اليونان وسارت الحضارات الهيلينية والرومانية

وإلى هذا انحرف ما يسمى (الفلسفة الإسلامية) التقليدية، عند الفارابى وابن سينا وابن رشد.

obeikandl.com

وماذا عن أتباع موسى عليه السلام من بنى إسرائيل؟

إنهم لم يكونوا فى اتباعهم له يقفون على أرض صلبة من التوجه العملى لله تعالى وحده

إنهم تبعوه لعصبية وهمية عرقية قومية عنصرية

هكذا كانت بداية التجمع الإسرائيلى حول موسى قائمة على شفا جرف هار من ضلال . ذلك أنه كما يشير قول الله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ ٨٣ يونس

هكذا كانوا متأثرين بدافع غريب يدفعهم إلى الإيمان بالله: هو العصبية العرقية: ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ وخوف غريب يدفعهم إلى الخوف من غير الله ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾.

وهنا يعلن لهم موسى عليه السلام عن الدافع الحقيقي الذى يجب أن يتوجهوا إليه، وذلك فى قوله: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ ٨٤ يونس.

إن أصحاب المنطق النظرى هم الذين تقول عنهم سورة يس: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

ومن ثم فهى تختصر لنا الطريق وترجع بنا إلى منطق الرسل:

منطق الإنذار

وهو منطق الوقائع العملية، ويبدأ معنا هذا المنطق من إعلان الخطر القادم ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ١١-١٢ يس

ومن هنا نقول: إن الطريق المعتمدة للوصول إلى معرفة الله ورسوله تقوم على المنطق العملى الذى يقره الإسلام .

وأن العقل الذى يعتمده الإسلام هو ما يمكن أن نسميه " العقل العملي" الذى عرفه العلماء بأنه (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات وتمييز المصالح من المفاسد لانتظام المعاش والمعاد)

إن الاعتقاديات وفقا للمنهج الإسلامى عمل أو وثيقة الارتباط بالعمل، فهى منذ اللحظة الأولى " فعل من أفعال العقل أو القلب وجزء أو شرط لأركان التصديق المنطقى " إيقاع النسبة بين المحمول والموضوع،وهى صيغة جمع لمفرد " الاعتقاد الجازم "، وهى تمثل بذرة نشوء علم الكلام الذى تمحور أساسا حول موضوع عملى هو " الأسماء والأحكام " وهى بعد ذلك تعنى "وضع الاستعداد" " لاتباع الرسول " فى كل ما يأتى به، وهى تعنى وضع الاستعداد لاتخاذ سلوك معين إزاء خبر معين جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عالم الغيب

وفى هذا السياق يقول تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٤١ – ٤٥ الرحمن

وإذا كانت النار تعرف زبائنها كما تعرف الذرة جزيئاتها، والخلية جيناتها، فهى تعرف من ليسوا من هؤلاء الزبائن لتتجنبهم: نظاما كونيا محتوما .

ففى صحيح ابن حبان فى باب ذكر سؤال النار ربها أن يجير من استجار به من النار، بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: "من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار " .

حدث كونى

إن ما جاء عن الإنذار بالنار فى العقيدة الإسلامية يبين أننا أمام حدث محكوم بميزان الله، مما يطلق عليه الناس قوانين الطبيعة، ونصحح القول فيه لنقول " قوانين الكون الموزون بميزان الله "

إن هذا الحدث مع كونه فى النهاية يمثل عقابا للكفار والعصاة فإنه مما يخشاه الملائكة والنبيون كذلك، مما يدل على صرامة قوانين الله، ونفاذ سننه فى الكون والوجود.

أنظر إلى ما ذكرناه سابقا من أن " الخوف من النار لا ينجو منه أحد"

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ٣٢ – ٢٤ البقرة.

ثم إلى قوله تعالى عما يعترى الجمادات[1] من خشية الله: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ البقرة ٧٤

إن هذا الحدث الكونى يقدم لنا المنطق العملى فى هلاك العصاة والكافرين: من حيث ما نجده من أن كل ما فى الوجود يتحرك حركته أو ينبغى له أن يتحرك فى سبيل الله، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ١١- ١٢ فصلت، وإشكالية الإنسان أنه أراد الله تكريمه وابتلاءه معا بأن يتحرك حركته فى سبيل الله – كما هو شأن المخلوقات جميعا – إلا أنه استثناء منهم أراد له أن تكون حركته باختياره.

وفى سبيل الله بالنسبة للإنسان تعنى أن يتحرك باختياره وفق إرادة الله فى الدين والأخلاق والشريعة والاقتصاد والعبادة، والاجتماع والتربية والأسرة إلخ، وكل نشاط إنسانى – فرديا كان أو اجتماعيا، أو دوليا، يخرج عما يريده الله وعما بينه رسله هو خارج سبيل الله، ليس هذا فحسب، ولكنه اعتداء على سبيل الله، اعتداء على سبيل الله الذى ينتظم الفلك والطبيعة والحياة والحضارة جميعا[2].

---

(١) للقارئ أن يستكمل النظرة هنا بما ذكرناه فى أول الجزء الخاص بالعبادة عن الوعى الكونى فى هذا الكتاب

(٢) أنظر تفصيلا لهذا الوضع الكونى فى بحثنا عن " النظام " ضمن كتابنا بعنوان " نحو منبر عصرى " نشر دار الكتاب الجامعى بالقاهرة نشر عام ٢٠٠١

ومن هنا فإن المخالفين يجدون أنفسهم فى خلاف لا مع خالقهم فحسب، ولكن مع المخلوقات جميعا: مع الكون، مع الطبيعة، مع قوانين الله فى الطبيعة، مع قوانين الكون المخلوق الموزون المحكوم: دنيا وأخرى، ولا منجاة لهم من سحق الكون لهم بالنار، إنها قوانين وسنن كقوانين التنفس وقوانين الجاذبية، أو أدق منها جميعا.

ومن هنا فإننا نرى النار تسعى إلى هؤلاء العصاة المخالفين، وتطلبهم طلبا طبيعيا، كما أنهم يتحركون نحوها حركة طبيعية كذلك، إن جهنم خلقت لتستقبلهم هناك فى آخر طريق الانحراف، إنهم مطرودون من الكون وليس لهم مكان فيه غير النار، وذلك بعد أن أخذوا فرصة الهداية، والتوبة فى هذه الدنيا فضيعوها.

إن هؤلاء المخالفين يجدون أنفسهم فى صدام مع جميع المخلوقات، ويأتى الملائكة على رأس مخلوقات الله الذين يتصادمون معهم: يقول تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ ١٧- ١٨ العلق، ويقول تعالى عن خزنة جهنم ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ٦ التحريم، ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ ٧٧ –٧٨ الزخرف

النار هناك تنتظرهم، فهم وقودها: ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ التحريم ٦ ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ٦- ٨ الملك .

والنار تنتظرهم هنالك بكراهية: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ ١١ –١٢ الفرقان

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ الكهف ٢٩

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة ٤٩

وفى مجمع الزوائد للهيثمى بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله: أنه قال لجبريل: مالى لا أرى ميكائيل ضاحكا قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت

النار .رواه أحمد من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهى ضعيفة وبقية رجاله ثقات

والنار تنتظرهم هناك بشراهة: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ ١٤ الليل

وهى تستقبلهم بطول انتظار وترقب وشره: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ق ٣٠

ويشرح ذلك ما جاء فى التخويف من النار لابن رجب: خرج ابن أبى حاتم [ابن حبان] من حديث خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من تقوَّل على ما لم أقل فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا، قيل يا رسول الله وهل لها عينان؟ قال: نعم أو لم تسمع قول الله عز وجل: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ الفرقان ١٢.

وفيه أنه روى أبو يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "إن العبد ليجر إلى النار، فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشفير، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف". خرجه ابن أبى حاتم

وفيه أنه خرج الإمام أحمد والترمذى من حديث الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يخرج يوم القيامة عنق من النار، لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق، تقول: إنى وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين" وصححه الترمذى، وقد قيل إنه ليس بمحفوظ بهذا الاسناد وإنما يرويه الأعمش عن عطية عن أبى سعيد، فقد روى الأعمش وغير واحد عن عطية عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يخرج عنق من النار يتكلم، يقول وكلت اليوم بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس، فتنطوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم". خرجه الإمام أحمد .

وخرجه البزار ولفظه "يخرج عنق من النار يتكلم، بلسان طلق ذلق، لها عينان تبصر بهما، ولها لسان تتكلم به، فتقول: إنى أمرت بمن جعل مع الله إلها آخر، وبكل

جبار عنيد، وبكل من قتل نفسا بغير نفس، فتنطلق بهم قبل سائر الناس بخمسمائة عام، وقد روى عن عطية عن أبى سعيد موقوفا .

وروى ابن لهيعة عن خالد بن أبى عمران عن القاسم عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: يخرج عنق من النار، فتنطوى عليهم، وتتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بمن دعا مع الله إلها آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد، فتنطوى عليهم، فتطرحهم فى غمرات جهنم. خرجه الامام أحمد

وهى تنتظرهم عالمة بزبائنها الطبيعيين: ففى مسند أبى يعلى الموصلى التميمى بسنده عن أبى سعيد قال: سمعت رسول الله يقول: إذا جمع الله الناس فى صعيد واحد يوم القيامة أقبلت النار يركب بعضها بعضا، وخزنتها يكفونها، وهى تقول: وعزة ربى ليخلين بينى وبين أزواجى، أو لأغشين الناس عنقا واحدا، فيقولون: ومن أزواجك؟ فتقول: كل متكبر جبار، فتخرج لسانها فتلتقطهم به من بين ظهرانى الناس، فتقذفهم فى جوفها، ثم تستأخر، ثم تقبل يركب بعضها بعضا، وخزنتها يكفونها،وهى تقول: وعزة ربى ليخلين بينى وبين أزواجى، أو لأغشين الناس عنقا واحدا، فيقولون ومن أزواجك؟ فتقول: كل جبار كفور، فتلتقطهم بلسانها من بين ظهرانى الناس، فتقذفهم فى جوفها، ثم تستأخر، ثم تقبل، فيركب بعضها بعضا، وخزنتها يكفونها، وهى تقول: وعزة ربى ليخلين بينى وبين أزواجى، أو لأغشين الناس عنقا واحدا فيقولون: من أزواجك؟ فتقول كل مختال فخور، فتلتقطهم بلسانها من بين ظهرانى الناس، فتقذفهم فى جوفها ثم تستأخر ويقضى الله بين العباد .

وجهان لقوانين الله فى الكون:

إنه إذا كانت النار واقعة كونية عظمى من خلق الله ..

وكان يوم القيامة حدثا هائلا من حوادث خلق الله ..

فإنه من الأحداث التى يكون لها وجهان أو أكثر .

وجه من حيث هو نتيجة لقوانين كونية وضعها الخالق لهذا الكون المنظم (والسماء رفعها ووضع الميزان) .

ووجه من حيث هو ثواب وعقاب لمن استجاب لمقتضيات هذا الميزان بعد أن أحيط علما .. ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ٨-٩ الرحمن

وجه الحدث ووجه الجزاء

تماما كما لو قيل لقائد سيارة مثلا: إذا سرت بدون ماء فى الراديا تير احترقت سيارتك، ولحق الأذى بك وبمن حولك، فإذا به يتصرف كأن لم يسمع هذا التقرير، فاحترقت سيارته .. ولحق الأذى به وبمن حوله .

تلك حقيقة أوردناها من خلال كونها حقيقة طبيعية فيزيائية كونية ..

ونفس هذا الحدث يمكن أن نقدمه بصورة أخرى مشمولة بالإنذار والوعيد .. إذا قيل لصاحب السيارة: حذار من أن تسير بسيارتك بغير ماء فى الراديا تير، وإلا كان جزاؤك على هذه المخالفة أن تحترق .. فإذا به يتصرف كأن لم يسمع هذا الإنذار فاحترقت سيارته واحترق بها.. فتلك حقيقة أوردناها من حيث هى حقيقة أخلاقية جزائية .

وهكذا جاء الإنذار بالنار .

قدمه لنا القرآن الكريم من حيث هو حقيقة كونية تندرج تحت النظام الكونى، والسنن الإلهية، وسبيل الله الموزون، يوم يحدث التوازن: لا عن طريق الاختلاط بين الأضداد كما هو الشأن فى هذه الحياة الدنيا، ولكن عن طريق الفرز التام ؛ يقول تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٣٧ الأنفال، ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ ١٧٨ - ١٧٩ آل عمران .

أخبرَنا بها كما يحدث الإخبار دائما بحقائق المستقبل .

ثم أنذرنا بها كما يحصل التحذير دائما من تجاهل حقائق هذا المستقبل.

يقول تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ ٦ التحريم

ويقول تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ ٧١ مريم

ولذلك تكون النجاة لمن لجأ منذ البداية إلى صانع هذا الحدث، وصانع النجاة منه، إذ يقول تعالى بعد ما تقدم: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾ ٧٢ مريم

ومن هنا جاء ذكر الصراط ﴿ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ ٦٦ يس

الصراط:

وهو جسر منصوب على متن جهنم يمر الناس منه على قدر أعمالهم

ففى صحيح البخارى بسنده عن الزهرى فى حديث طويل عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان، قالوا: نعم، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو).

وفى صحيح ابن حبان بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك، وكلاليب، وخطاطيف، تخطف الناس يمينا وشمالا، وبجنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلم سلم، فمن الناس من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الفرس ..، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشى مشيا، ومنهم من يحبو حبوا ومنهم، من يزحف زحفا " . صححه ابن حبان وقال الشيخ شعيب الأرناؤط: إسناده صحيح على شرط مسلم

منطقية سقوط الكافر فى النار:

قد يحلو للبعض أن يتساءل: ما العلاقة النسبية بين ما فعله الكافر فى الدنيا وبين سقوطه فى النار فى الآخرة؟

الجواب على ذلك بكل بساطة البديهة، أوحجية المنطق: إنه كما يقول عنه القرآن الكريم: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ١٦ الليل، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ٤٨ طه .

ومن ثم كان التارك المتروك .

ترك اللهَ صانع النجاة وحده، فانطبق عليه قانون الوجود الإلهى، هذا الوجود الموزون: أى ترك الله فكان بهذا الترك متروكا من الله لزوما .

وفى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ص ٢٦ ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ التوبة ٦٧، أى تركوا الله فصنعوا بهذا الترك أن كانوا متروكين، فالتاركية تضمنت المتروكية لزوما، فكأن المتروكية ليست فعلا زائدا على التاركية .

فخلاصة المنطق فى قضية الكافر مع النار أنه المتروك، التارك المتروك، المتروك لعدوه الطبيعى الذى تم تحذيره منه: النار ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ آخر الفرقان .

وفى هذه النقطة بالذات يظهر الفرق جليا بين حالة المؤمن العاصى الذى يتقاضى عذابه ثم تختم حاله بالجنة، وحالة الكافر الذى لا يشم ريحها مهما فعل فى الدنيا مما نتوهمه حسنات .

ذلك: أن مرتكب الكبيرة بمقتضى إسلامه لاجئ إلى الله طالب للنجاة ممن يملكها، سائر فى الطريق التى تُسلِكه إليها، فهو مهما يرتكب (متحرك داخل الطريق ..) تذهب الحركة المنحرفة به هنا أو هناك، ولكنه على كل الأحوال " داخل الطريق المؤدية " .

أما الكافر فقد رفض اللجوء إلى الله مبدئياً، وأعطى ظهره للطريق المؤدية، ولم

يطلب النجاة، أو طلبها ممن لا يملكها، فهو مهما يفعل مما ينفعه أو ينفع الناس، متحرك خارج الطريق، قد يحقق نفعاً هنا أو نفعاً هناك، لكنه على كل الأحوال (خارج الطريق) . فكيف يحصل على النجاة من كارثة النار، وهو لم يطلبها، أو لم يطلبها ممن يملكها؟ (قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) أى لولا توجهكم إليه، والكافر لم يتوجه إليه، فكيف يحصل على مطلب (النجاة) الذى لم يطلبه أصلا ؛ إذ طلبه لا يتصور إن لم يكن ممن يملكه؟

إن حادث النار يوم القيامة حادث كونى عام، كما قلنا من قبل - يتعرض له البشر وغيرهم، ﴿ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ ﴾، ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ والله سبحانه وتعالى حذرنا من هذا الحادث، أنذرنا به، وأرشدنا إلى (متجه) النجاة منه، وهو متجه إسلام النفس لله، والكافر أعرض عن هذا المتجه، وولى وجهه عنه ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

والأمر هنا أشبه بما كان فى حادث الفيضان، أنذر نوح عليه الصلاة السلام الناس به، فمن ركب السفينة كان له النجاة، ومن تولى عنها كيف ينجو من الطوفان؟ إنه خرج بكليته من البقعة الوحيدة التى لا يغرقها الطوفان، خرج بكليته وبإرادته، وغامر بلقاء الطوفان، فلما فاجأه الطوفان، كان الطريق مقطوعاً بينه وبين السفينة واتجه إلى ما كان يظنه بقعة من اليابس خارج السفينة، ولم يدر أن البقعة من اليابس مهما ارتفعت فوق الجبل (الجودي) لا نجاة فيها، لأنها لا تقاوم الطوفان ولا تفلت منه، النجاة الوحيدة فى السفينة .

والطوفان فى الآخرة هو النار، والسفينة هى الإيمان، فكيف لمن ولى عن السفينة أن يطلب النجاة من الطوفان، إنه هالك لا محالة بتوليه، هالك لا محالة بفعله .

أما مرتكب الكبيرة فهو أشبه براكب السفينة الذى يرتكب المخالفات وهو على ظهرها، إنه يؤدَّب، إنه يجُزى على معصيته، إنه يذوق من النار المحيطة بالسفينة، فإذا هو بعد ذلك لم يتغير موقعه الذى اختاره، ولم يخرج من سفينته التى لجأ إليها، وهذا هو انتهاء عقابه واستئناف مقامه المكفول له بالإيمان، مقام الفوز بالجنة، والنجاة من النار .

الإنذار رحمة

إن الإنذار نابع من صفة الرحمة الإلهية ففى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، أنه سمع رسول الله يقول: " إنما مثلى ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها "

وهذا لأن خوف العقاب ليس مقصودا لذاته إنما هو سوط يساق به المتوانى عن الطاعة، ومن هنا كانت النار من جملة نعم الله على عباده الذين خافوه واتقوه، ولهذا المعنى عدها الله سبحانه من جملة آلائه على الثقلين فى قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٤٣-٤٧ الرحمن .

وقال سفيان بن عيينة خلق الله النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا أخرجه أبو نعيم

مراتب الخوف وأحكامه:

من الخوف ما هو واجب، ومنه ما هو مستحب أو محمود، ومنه ما هو مكروه أو غير مستحب: فالقدر الواجب من الخوف هو ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم .

فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير فى نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والبعد عن التبسط فى فضول المباحات كان ذلك خوفا محمودا .

فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضا أو موتا، أو هما لازما بحيث يقطع عن السعى فى اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل لم يكن محمودا .

ولهذا كان السلف يخافون على عطاء السلمى من شدة خوفه الذى أنساه القرآن،

وصار صاحب فراش، وهذا لأن خوف العقاب ليس مقصودا لذاته، إنما هو سوط يساق به المتوانى عن الطاعة، والمقصود الأصلى هو طاعة الله عز وجل وفعل مراضيه ومحبوباته وترك مناهيه ومكروهاته .

ولا يصح أن ينكر أحد أن خشية الله وهيبته وعظمته فى الصدور وإجلاله مقصود أيضا، ولكن القدر النافع من ذلك ما كان عونا على التقرب إلى الله بفعل ما يحبه وترك ما يكرهه، ومتى صار الخوف مانعا من ذلك وقاطعا عنه فقد انعكس المقصود منه، ولكن إذا حصل ذلك عن غلبة كان صاحبه معذورا .

العبد بين الخوف والرجاء والمحبة:

ومع ذلك فإنه لا بد فى حركة المسلم نحو ربه من التفاعل بين الخوف من سخطه من ناحية، والرجاء فى مرضاته من ناحية أخرى .

ويقول الإمام أبو حامد الغزالى: (فضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله والاغترار فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل .

ثم إن الخلق فى هذا الزمان كلهم الأفضل لهم الخوف، بشرط ألا يخرجهم اليأس إلى ترك العمل، وقطع الطمع من المغفرة، فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل، وداعيا إلى الانهماك فى المعاصى وليس بخوف، إنما الخوف هو الذى يحث على العمل، ويكدر الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا، ويدعوه إلى التجافى عن دار الغرور، فهذا هو الخوف المحمود: فوق حديث النفس الذى لا يؤثر فى الكف والحث، ودون اليأس الموجب للقنوط) اهـ إحياء علوم الدين

وقال الإمام ابن حجر فى فتح البارى فى شرحه لصحيح البخارى: ("قوله باب الرجاء مع الخوف " أى استحباب ذلك، فلا يقطع النظرُ فى الرجاء عن الخوف، ولا فى الخوف عن الرجاء، لئلا يفضى فى الأول الى المكر، وفى الثانى الى القنوط، وكل منهما مذموم، والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله،

ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا فى غرور

وما أحسن قول أبى عثمان الجيزى: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصى وترجو أن تنجو .

وقد أخرج ابن ماجة من طريق عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن أبيه عن عائشة قلت: يا رسول الله " الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة " أهو الذى يسرق ويزنى؟ قال: " لا، ولكنه الذى يصوم ويتصدق ويصلى ويخاف أن لا يقبله منه ". وهذا كله متفق على استحبابه فى حالة الصحة .

وقيل: الأولى أن يكون الخوف فى الصحة أكثر، وفى المرض عكسه، وأما عند الإشراف على الموت فاستحب قوم الاقتصار على الرجاء، لما يتضمن من الافتقار إلى الله تعالى، ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر، فيتعين حسن الظن بالله، برجاء عفوه ومغفرته، ويؤيده حديث "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله" رواه مسلم فى صحيحه .

وقال آخرون: لا يهمل جانب الخوف أصلا، بحيث يجزم بأنه آمِن، ويؤيده ما أخرج الترمذى عن أنس: أن النبى صلى الله عليه وسلم: دخل على شاب وهو فى الموت فقال له كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله، وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف").

ويقول الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلى فى كتابه "التخويف من النار (: فأما ما يذكر عن بعض العارفين من عدم خشية النار فالصحيح منه له وجه، قال ابن المبارك أنبأنى عمر بن عبد الرحمن بن مهدى سمعت وهب بن منبه يقول:

قال حكيم من الحكماء: إنى لأستحيى من الله عز وجل أن أعبده رجاء ثواب الجنة - أى فقط - فأكون كالأجير السوء، إن أعطى عمل، وإن لم يعط لم يعمل .

وإنى لأستحيى من الله أن أعبده مخافة النار - أى فقط - فأكون كعبد السوء إن رهب عمل وإن لم يرهب لم يعمل. وإنه يستخرج حبُّه منى ما لا يستخرجه منى غيره، خرجه أبو نعيم بهذا اللفظ .

وكان بعض السلف: يقول من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري[1]، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد مؤمن .

وسبب هذا أنه يجب على المؤمن أن يعبد الله بهذه الوجوه الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، ولا بد له من جميعها، ومن أخل ببعضها فقد أخل بعض واجبات الإيمان .

وكلام هذا الحكيم يدل على أن الحب ينبغى أن يكون أغلب من الخوف والرجاء.

وقد قال الفضيل بن عياض: المحبة أفضل من الخوف، ثم استشهد بكلام هذا الحكيم الذى حكاه عنه وهب .

وكذا قال يحيى بن معاذ: حسبك من الخوف ما يمنع من الذنوب، ولا حسب من الحب أبدا، فأما الخوف والرجاء فأكثر السلف على أنهما يستويان، لا يرجح أحدهما على الآخر، قاله مطرف والحسن وأحمد وغيرهم، ومنهم من رجح الخوف على الرجاء، وهو محكى عن الفضيل وأبى سليمان الدارانى .

ومن هذا أيضا قول حذيفة المرعشى: إن عبدا يعمل على خوف لعبد سوء، وإن عبدا يعمل على رجاء لعبد سوء، كلاهما عندى سواء، ومراده إذا عمل على إفراد أحدهما عن الآخر .

وقال وهيب بن الورد: لا تكونوا كالعامل يقال: له تعمل كذا وكذا فيقول: نعم إن أحسنتم لى من الأجر، ومراده ذم من لا يلحظ فى العمل إلا الأجر

---

(١) المرجئ من يعتقد أنه لا يضر مع الإيمان معصية، والحرورى يعتقد أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار .

وهؤلاء العارفون لهم ملحظان:

أحدهما: أن الله تعالى يستحق لذاته أن يطاع، ويحب، ويبتغى قربه والوسيلة إليه، مع قطع النظر عن كونه يثيب عباده ويعاقبهم كما قال القائل:

هب البعث لم تأتنا رسله * وجاحمة النار لم تضرم

أليس من الواجب المستحق * حياء العباد من المنعِم

وقد أشار هذا إلى أن نعمه على عباده تستوجب منهم شكره عليها، وحياءهم منه.

وهذا هو الذى أشار إليه النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا

والملحظ الثانى: أن أكمل الخوف والرجاء ما تعلق بذات الحق سبحانه، دون ما تعلق بالمخلوقات فى الجنة والنار، فأعلى الخوف خوف البعد والسخط والحجاب عنه سبحانه، كما قدم سبحانه ذكر هذا العقاب لأعدائه على صليهم النار فى قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ المطففين ١٥-١٦

وقال ذو النون: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة فى بحر لجى، كما أن أعلى الرجاء ما تعلق بذاته سبحانه، من رضاه ورؤيته ومشاهدته وقربه، ولكن قد يغلط بعض الناس فى هذا، فيظن أن هذا كله ليس بداخل فى نعيم الجنة، ولا فى مسمى الجنة إذا أطلقت، ولا فى مسمى عذاب النار، أو فى مسمى النار إذا أطلقت وليس كذلك.

وبقى ها هنا أمر آخر: وهو أن يقال: ما أعده الله فى جهنم من أنواع العذاب المتعلق بالأمور المخلوقة لا يخافها العارفون، كما أن ما أعده الله فى الجنة من أنواع النعيم المتعلق بالأمور المخلوقة لا يحبه العارفون ولا يطلبونه، وهذا أيضا غلط، والنصوص الدالة على خلافه كثيرة جدا ظاهرة، وهو أيضا مناقض لما جبل الله عليه

الخلق من محبة ما يلائمهم وكراهة ما ينافرهم، وإنما صدر مثل هذا الكلام ممن صدر منه فى حال سكره واصطلامه واستغراقه وغيبة عقله، فظن أن العبد لا يبقى له إرادة أصلا، فإذا رجع إليه عقله وفهمه علم أن الأمر على خلاف ذلك .

ونحن نضرب لذلك مثلا يتضح به هذا الأمر إن شاء الله تعالى: وهو أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة واستدعاهم الرب سبحانه إلى زيارته ومشاهدته ومحاضرته يوم المزيد فإنهم ينسون عند ذلك كل نعيم عاينوه فى الجنة قبل ذلك، ولا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من نعيم الجنة حتى يحتجب عنهم سبحانه، ويحقرون كل نعيم فى الجنة حين ينظرون إلى وجهه جل جلاله، وكما جاء فى أحاديث يوم المزيد فلو أنهم ذكروا حينئذ بشيء من نعيم الجنة لأعرضوا عنه، ولأخبروا أنهم لا يريدون فى تلك الحال، وكذلك لو خوفوا عذابا ونحوه لم يلتفتوا إليه، وربما لم يستشعروا ألمه فى تلك الحال، وإنما يحذرون حينئذ من الحجاب عما هم فيه والبعد عنه، فإذا رجعوا إلى منازلهم رجعوا إلى ما كانوا عليه من التنعم بأنواع النعيم المخلوق لهم، بل يزداد نعيمهم بذلك مع شدة شوقهم إلى يوم المزيد ثانيا .

فهكذا حال العارفين الصادقين فى الدنيا إذا تجلى على قلوبهم أنوار الإحسان، واستولى عليها المثل الأعلى، فإن هذا من شواهد ما يحصل لهم فى الجنة يوم المزيد، فهم لا يلتفتون فى تلك الحال إلى غير ما هم فيه من الأنس بالله، والتنعم بقربه وذكره ومحبته، حتى ينسوا ذكر نعيم الجنة، ويصغر عندهم بالنسبة إلى ما هـــم فيه، ولا يخافون حينئذ أيضا غير حجبهم عن الله، وبعدهم عنه، وانقطاع مواد الأنس به، فإذا رجعوا إلى عقولهم وسكنت عنهم سلطنة هذا الحال وقهره وجـــدوا أنفسهم وإرادتهم باقية، فيشتاقون حينئذ إلى الجنة، ويخافون من النار، مع ملاحظتهم لأعلى ما يشتاق إليه من الجنة ويخشى منه من النار .

وأيضا فالعارفون قد يلاحظون من النار أنها ناشئة عن صفة انتقام الله وبطشه وغضبه، والأثر يدل على المؤثر، فجهنم دليل على عظمة الله وشدة بأسه وبطشه وقوة سطوته وانتقامه فى أعدائه، فالخوف منها فى الحقيقة خوف من الله وإجلال

وإعظام وخشية لصفاته المخوفة، مع أن الله سبحانه يخوف بها عباده، ويجب منهم أن يخافوه بخوفها وأن يخشوه بخشية الوقوع فيها، وأن يحذروه بالحذر منها، فالخائف من النار خائف من الله، متبع لما فيه محبته ورضاه، والله أعلم). اهـ

ومن هنا صح لنا أن نقول: إن النجاة إنما هى على وتر محسوب فى صلة ما بين الخوف والرجاء والمحبة .

التبشير بالنجاة والفوز بالجنة

إن الأمل فى النجاة من النار قريب:

وفى رواية للبيهقى فى الأربعين الصغرى بسنده عن أبى وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك"،رواه البخارى فى الصحيح عن أبى حذيفة عن سفيان

وأسباب النجاة تبدو سهلة المنال: إذا افترضنا إخلاص العبادة والتوبة من الذنوب، وهو افتراض يفرضه لزوم الاتساق مع قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن أبى أيوب أنه قال" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر الله لهم " وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لله أشد فرحا بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها" وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجة فى سننه بسنده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال "لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم"، وبسنده عن أبى عبيدة بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله " التائب من الذنب كمن لا ذنب له "

عندئذ تتوافد نسمات الرحمة وجاذبات النجاة من أقرب درب، وأيسر سبب، وأسهل طريق .

ومن دروب الرحمة تلك .. الاستعاذة بالله من النار:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ١٥-١٦ آل عمران.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ آل عمران ١٩١ - ١٩٥

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى ذكر الملائكة الذين يلتمسون مجالس الذكر وفيه: إن الله عز وجل يسألهم، وهو أعلم بهم، فيقول مم يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول: وهل رأوها؟ قالوا: لا والله ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا،وأشد منها مخافة، قال: فيقول إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم .

وخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما من مسلم يسأل الله الجنة ثلاثا إلا قالت الجنة " اللهم أدخله الجنة "، ومن استجار من النار ثلاثا قالت النار: " اللهم أجره من النار" .

وخرج البزار وأبو يعلى الموصلى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: يا رب إن عبدك فلانا استجار منى فأجره، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلانا سألنى فأدخله الجنة .

إنه أثر إخلاص العبودية والتوبة .

ومن دروبها: دموع الندم والأشواق

ففى كتاب التخويف من النار لابن رجب فى الباب الرابع فى "أن البكاء من خشية النار ينجى منها، وأن التعوذ بالله من النار يوجب الإعاذة منها": أنه قد تكاثرت النصوص فى أن البكاء من خشية الله يقتضى النجاة منها، والبكاء خوفا من نار جهنم هو البكاء من خشية الله، لأنه بكاء من خشية عقاب الله، وسخطه، والبعـــد عنه، وعن رحمته،وجواره ودار كرامته:

فقد روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع) خرجه النسائى والترمذى وقال صحيح .

وعن ابن عباس قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: عينان لا تمسهما النار: عين بكت فى جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله عز وجل) خرجه الترمذى وقال حسن .

وعن أبى ريحانة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "حرمت النار على عين دمعت أو بكت فى جوف الليل من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله" وذكر عينا ثالثة، خرجه الإمام أحمد وهذا لفظه، والنسائى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وخرجه الجوزجانى ولفظه: "حرمت النار على عين سهرت بكتاب الله، وحرمت النار على عين دمعت من خشية الله، وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله، أو فقئت فى سبيل الله ".

وعن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع ولو كانت مثل رأس الذباب من خشية الله ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النار "، خرجه ابن ماجه، وقد روى موقوفا على من دون ابن مسعود، وفى الباب أحاديث أخر فى المعنى مسندة ومرسلة

وفيه أنه كان عبد الواحد بن زيد يقول: يا إخوتاه ألا تبكـــون شوقا إلى الله عز وجل؟ ألا إنه من بكى شوقا إلى سيده لم يحرمه النظر إليه. يا إخوتاه ألا تبكون خوفا من النار؟ ألا إنه من بكى خوفا من النار أعاذه الله منها .

وفيه عن فرقد السبخى: قال قرأت فى بعض الكتب أن الباكى على الجنة لَتشفـع له الجنة إلى ربها، فتقول: يا رب أدخله الجنة كما بكى على، وإن النار لتستجير له من ربها، فتقول: يا رب أجره من النار كما استجار منى وبكى خوفا من دخولى.

إنه أثر إخلاص العبودية والتوبة .

ومن دروبها: شفاعة الولدان:

ففى مجمع الزوائد للهيثمى عن محمد بن سيرين قال: حدثتنا امرأة كانت تأتينا، يقال لها ماوية، كانت ترزأ فى ولدها، فأتت عبيد الله بن معمر القرشى ومعه رجل من أصحاب النبى، فحدث ذلك الرجل: أن امرأة أتت النبى بابن لها، فقالت يا رسول الله: ادع الله تبارك وتعالى أن يبقيه لى، فقد مات لى قبله ثلاثة، فقال: أمنذ أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: أمنذ أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: أمنذ أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: جنة حصينة. رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح خلا ماوية شيخة ابن سيرين .

وعن امرأة يقال لها رحا قالت: كنت عند النبى إذ جاءته امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله ادع الله لى فيه بالبركة، فإنه قد توفى لى ثلاثة، فقال رسول الله: أمنذ أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: جنة حصينة رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير إلا أنه سماها رحما ورجاله رجال الصحيح

وعن حبيبة أنها كانت عند عائشة رضى الله عنها فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى دخل عليها، فقال: ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا جئ بهم يوم القيامة حتى يوقفوا على باب الجنة، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون: حتى يدخل آباؤنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم، رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح، خلا يزيد بن أبى بكرة ولم أجد من ترجمه، وأعاده بإسناد آخر ورجال ثقات وليس فيه يزيد بن أبى بكرة والله أعلم

وعـن زهير بن علقمة قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله فقالت: يا رسـول الله قد مات لى ابنان منذ دخلت فى الإسلام سوى هذا، فقال النبى لقد احتظـرت مـن النـار بحظار شديد. رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح.

وفيمن مات له ولدان أو ولد:

فيما رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد: بسنده عن الحارث بن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مسلمين يموت لهما أربعة أولاد إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته، قالوا: يا رسول الله وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قـالوا واثنان؟ قال: واثنان، رواه عبد الله بن أحمد، والطبرانى فى الكبير، وأبو يعلى ورجاله ثقات .

وعن بريدة قال: كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم، فبلغه أن امرأة من الأنصـار مات ابن لها، فجزعت عليه، فقام النبى ومعه أصحابه فلما بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبى الله يريد أن يدخل يعزيها، فدخل رسول الله، فقال: أما أنه بلغـنى أنك جزعت على ابنك، قالت: يا نبى الله ما لى لا أجزع، وأنا رقوب لا يعيش لى ولد، فقال رسول الله: إنما الرقوب الذى يعيش ولدها، إنه لا يموت لامرأة مسلمة أو امرئ مسلم نعمة - قال أو ثلاثة - من ولده، يحتسبهم إلا وجبت له الجنة، فقال عمر وهو عن يمين النبى: بأبى أنت وأمى: واثنين؟ قال نبى الله، واثنين، رواه البزار ورجاله رجـال الصحيح .

وعن زهير ابن أبى علقمة قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله بابن لها، فقالت: يا رسول الله إنه قد مات لى ابنان سوى هذا، فقال رسول الله: لقد احتظرت من دون النار بحظار شديد، رواه البزار ورجاله ثقات .

وعن أبى ثعلبة الخشنى قال: توفى لى ولدان، فقلت: يا رسول الله توفى لى ولدان، فقال رسول الله: "من مات له ولدان أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم "، رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح

و فيمن مات له ولد واحد: عن جابر قال سمعت رسول الله يقول: من مات له ثلاثه من الولد فاحتسبهم دخل الجنة، قال: قلنا: يا رسول الله واثنان؟ قال: واثنان، قال محمود فقلت لجابر أراكم لو قلتم واحدا لقال واحدا؟ قال: وأنا والله أظن ذاك رواه أحمد ورجاله ثقات

وعن قرة بن إياس أن رجلا كان يأتى النبى ومعه ابن له، فقال له النبى أتحبه؟ قال: نعم يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه، ففقده النبى فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ قالوا: يا رسول الله مات، فقال النبى لأبيه: ألا تحب أن لا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟ فقال رجل يا رسول الله أله خاصة أم لكلنا؟ قال: بل لكلكم، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

وعن بعض أصحاب النبى أنه سمع النبى يقول: إنه يقال للولدان يوم القيامة: أدخلوا الجنة، فيقولون: يا رب حتى تدخل آباؤنا وأمهاتنا؟ قال: فيأبون، قال: فيقول الله عز وجل: مالى أراهم محبنطئين؟ أدخلوا الجنة، قال: فيقولون: يارب آباؤنا؟ فيقول: أدخلوا الجنة أنتم وأباؤكم، رواه أحمد ورجاله ثقات .

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تعدون الرقوب فيكم؟ قالوا: الذى لا ولد له، قال: بل الذى لا فرط له، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح [1] .

ذلكم أثر إخلاص العبودية والتوية .

وقد تأتى النجاة بشفاعة الشافعين المأذونين:

ففى التخويف من النار لابن رجب:

فى الأحاديث الصحيحة أن الموحدين يمرون على الصراط فينجو منهم من ينجو، ويقع منهم من يقع فى النار، فإذا دخل أهل الجنة فقدوا من وقع من إخوانهم الموحدين فى النار، فيسألون الله عز وجل إخراجهم منها، وفى هذا روى زيد بن

(١) الولد يشمل الابن والبنت .

أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث طويل: قال " حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله فى استيفاء الحق.. من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار، يقولون: ربنا إنهم كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى أنصاف ساقيه، وإلى ركبتيه، فيقولون: ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول لهم: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه نصف مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجوه خلقا كثيرا،ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا بإخراجه أحدا فيقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا فيقولون ربنا لم نذر فيها خيرا، وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء ٤٠: يقول الإمام ابن رجب: خرجاه فى الصحيحين ولفظه لمسلم.

وتأتى النجاة من درب التوحيد:

فيقول الله عز وجل كما جاء فى بقية الحديث السابق: "شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج بها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حمما، فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل .. خرجاه فى الصحيحين ولفظه لمسلم

والمراد بقوله " لم يعملوا خيرا قط ": من أعمال الجوارح وإن كان أصل الإيمان معهم، وفقا لما جاء فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه فيما جاء فى صحيح البخارى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال رجل لم يعمل خيرا قط .. فإذا مات

فحرقوه، واذروا نصفه فى البر، ونصفه فى البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت؟ قال: من خشيتك يارب، فغفر له) ووفقا لما جاء فى الحديث فى صحيح البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم **إلا بحقها** وحسابهم على الله)

ويشهد لهذا ما فى حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث الشفاعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "فأقول يا رب ائذن لى فيمن يقول لا إله إلا الله" فيقول "وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله" خرجاه فى الصحيحين

وعند مسلم فيقول " ليس ذلك لك - أو ليس ذلك إليك - " وهذا يدل على أن الذين يخرجهم الله برحمته من غير شفاعة مخلوق هم أهل كلمة التوحيد، الذين لم يعملوا معها خيرا قط بجوارحهم والله أعلم

وروى أبو الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: يوضع الصراط بين ظهرانى جهنم عليه حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فناج مسلم ومجروح به ناج، ومحتبس منكوس فيها، فإذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وتفقد المؤمنون رجالا فى الدنيا كانوا يصلون بصلاتهم، ويزكون زكاتهم، ويصومون صومهم ويحجون حجهم، ويغزون غزوهم، فيقولون: أى ربنا عباد من عبادك، كانوا معنا فى الدنيا يصلون بصلاتنا، ويزكون زكاتنا، ويصومون صومنا، ويحجون حجنا، ويغزون غزونا ولا نراهم، فيقول عز وجل: اذهبوا إلى النار فمن وجدتموه فيها فأخرجوه، قال: فيخرجونهم وقد أخذتهم النار على قدر أعمالهم، فمنهم من أخذته إلى قدميه، ومنهم من أخذته إلى ركبتيه، ومنهم من أخذته إلى أزرته، ومنهم من أخذته إلى ثديه، ومنهم من أخذته إلى عنقه، ولم تغْشَ الوجوه، قال

فيستخرجونهم، ثم يطرحون فى ماء الحياة، قيل: يا نبى الله وما ماء الحياة؟ قال: غسل أهل الجنة، قال: فينبتون فيها كما تنبت الزرعة فى غثاء السيل، ثم تشفع الأنبياء فى كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصا فيستخرجونهم منها، ثم يتحنن الله برحمته على من فيها فما يترك فيها عبدا فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلا أخرجه منها، خرجه الحاكم، وقال صحيح الإسناد .

وخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك عن عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يدخل أهل الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله عز وجل: أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة أو حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها، قد اسودوا، فيلقون فى نهر الحياة - أو الحياء شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية، ولفظه للبخارى .

وعند مسلم " فيخرجون منها حمما قد امتحشوا " .

وفى الصحيحين أيضا عن الزهرى عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال " يجمع الله الناس يوم القيامة، فذكر الحديث بطوله، وفيه ذكر جواز الناس على الصراط، ثم قال "حتى إذ فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل الكبائر من النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن دخل النار، يعرفون بأثر السجود، تأكل النار ما من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار، قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحبة فى حميل السيل " وذكر بقية الحديث

وخرج مسلم من حديث يزيد الفقيرعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارة وجوههم حتى يدخلوا الجنة ".

وخرج أيضا من حديث أبى نضرة عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وآله

وسلم قال:" أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم الله إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن فى الشفاعة، فجيء بهم ضبابير ضبابير،فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل لأهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل "

قال بعض العلماء: وظاهر الحديث يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة، وتفارق أرواحهم أجسادهم، ويرى بعضهم أن المراد إماتة ما كما يوحى بذلك قوله صلى الله عليه وسلم (أماته إماتة)، أى نوع إماتة والله اعلم .

ويدل على ذلك ما خرجه البزار من حديث عبد الله بن رجاء حدثنا سعيد ابن مسلمة أخبرنى موسى بن جبير عن أبى أمامة بن سهل عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال "إن أدنى أهل الجنة حظا - أو نصيبا - قوم يخرجهم الله من النار، فيرتاح لهم الرب تعالى إنهم كانوا لا يشركون بالله شيئا، فينبذون بالعراء، فينبتون كما تنبت البقلة، حتى إذا دخلت الأرواح أجسادها قالوا: ربنا كما أخرجتنا من النار وأرجعت الأرواح إلى أجسادها فاصرف وجوهنا عن النار فتصرف وجوههم عن النار " .

وروينا – والكلام للحافظ ابن رجب - من طريق محمد بن معاوية حدثنا حازم عن الحسن قال: أهل التوحيد فى النار لا يقيدون، فتقول الخزنة بعضهم لبعض: ما بال هولاء يقيدون وهؤلاء لا يقيدون؟ فناداهم مناد: إن هؤلاء كانوا يمشون فى ظلام الليل إلى المساجد .

وقال مروان بن معاوية عن مالك بن أبى الحسن عن الحسن قال " يخرج رجل من النار بعد ألف عام " قال الحسن " ليتنى ذلك الرجل "

ذلكم أثر الإخلاص فى العبادة، أوالتوبة .

وتأتى النجاة من درب حسن الظن بالله .

ففى التخويف من النار أيضا: قال أحمد بن أبى الحوارى دخلت على أبى سليمان، وهو يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: لئن طالبنى بذنوبى لأطالبنه بعفوه،

ولئن طالبنى ببخلى لأطالبنه بجوده، ولئن أدخلنى النار لأخبرن أهل النار أنى كنت أحبه

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله تعالى، بإسناده عن على بن بكار، أنه سئل عن حسن الظن بالله: قال أن لا يجمعك والفجار فى دار واحدة .

وعن سلمان بن الحكم بن عوانة أن رجلا دعا بعرفات فقال: لا تعذبنا بالنار بعد أن أسكنت توحيدك قلوبنا، قال: ثم بكى وقال: ما أخالك تفعل بعفوك؟ ثم بكى، وقال: ولئن فعلت فبذنوبنا، لا تجمعن بيننا وبين قوم ظالمين عاديناهم فيك. وعن حكيم بن جابر قال: قال إبراهيم عليه السلام: اللهم لا تشرك من كان يشرك بك ومن كان لا يشرك بك .

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنى أبو حفص الصيرفى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا تلا ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ النحل ٣٨ قال: ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليبعثن الله من يموت، أتراك تجمع بين القسمين فى دار واحدة؟ ثم بكى أبو حفص بكاء شديدا .

وروى أبو نعيم بإسناده عن عون بن عبد الله قال: ما كان الله لينقذنا من شر ثم يعيدنا فيه ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ آل عمران ١٠٣، وما كان الله ليجمع بين أهل القسمين فى النار ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ النحل ٣٨، ونحن نقسم بالله جهد إيماننا ليبعثن الله من يموت

وقال محمد بن إسحاق السراج حدثنا حماد بن المؤمل الكلبى حدثنى بعض أصحابنا عن ابن السماك قال لما طلبنى هارون الرشيد قال: تكلم، وادع . فدعوت بدعاء أعجبه، وقلت فى دعائى: اللهم إنك قلت ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ اللهم إنا نقسم بالله جهد إيماننا لتبعثن من يموت، أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين فى مكان واحد؟ وهارون يبكي

وتأتى النجاة من أفق الرحمة المطلقة لمن يتوجه إليه سبحانه .

وإنها لرحمة الخالق بما صنعت يداه من عباده الراجين

فمن حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه مما رواه الشيخان: أنه قدم على النبى صلى الله عليه وسلم، فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسقى، إذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لنا " أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟ قلنا: لا وهى تقدر على ألا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها " متفق عليه .

وفى التخويف من النار بسنده عن أنس، قال: مر النبى ونفر من أصحابه وصبى فى الطريق، فلما رأت أم الصبى القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى، وتقول ابنى ابنى، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار، قال فخفضهم النبى وقال: ولا والله ما يلقى حبيبه فى النار. رواه أحمد والبزار بنحوه وأبو يعلى ورجالهم رجال الصحيح .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: بلغنى أن رسول الله كان فى بعض مغازيه، فبينما هم يسيرون إذ أخذوا فرخ طير، فأقبل أحد أبويه حتى سقط فى أيدى الذى أخذه، فقال رسول الله: ألا تعجبون لهذا الطير أخذ فرخه فأقبل حتى سقط فى ايديهم؟ والله لله أرحم بخلقه من هذا الطير بفرخه. رواه البزار من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يكون قوم فى النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يرحمهم الله فيخرجهم منها، فيكونون فى أدنى الجنة فيغتسلون فى نهر يقال له الحيوان، يسميهم أهل الجنة الجهنميين، لو ضاف أحدهم أهل الجنة لعرسهم وأطعمهم وسقاهم ولحفهم، ولا أظنه إلا قال ولزوجهم، لا ينقصه ذلك شيئا. رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح غير عطاء بن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آخر من

يخرج من النار رجلان، يقول الله لأحدهما: يا ابن آدم ما أعددت هذا اليوم؟ هل عملت خيرا قط؟ أو رجوتنى؟ فيقول: لا يا رب، فيؤمر به إلى النار وهو أشد أهل النار حسرة، ويقول للآخر: هل عملت خيرا قط؟ أو رجوتنى؟ فيقول: نعم يا رب،، كنت أرجو إن أخرجتنى أن لا تعيدنى فيها، وهو آخر من يدخل الجنة. رواه أحمد، والبزار وزاد "هل خفتنى" ورجاله رجال الصحيح غير على بن زيد وهو حسن الحديث

وعن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم: أن عبدا لينادى فى النار ألف سنة: يا حنان يا منان، قال: فيقول الله لجبريل عليه السلام: اذهب فائتنى بعبدى هذا فينطلق جبريل، فيجد أهل النار منكبين يبكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول: ائتنى به فإنه فى مكان كذا وكذا، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل، فيقول: يا عبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان وشر مقيل، فيقول: ردوا عبدى، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذا أخرجتنى منها أن تعيدنى فيها، فيقول: دعوا عبدى. رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح غير أبى ظلال وضعفه الجمهور ووثقه ابن حبان .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله: إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، رحمة منها قسمها بين الخلائق، وتسعة وتسعين إلى يوم القيامة. رواه الطبرانى والبزار وإسنادهما حسن

وعن الحسن يعنى البصرى قال: بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله مائة رحمة، وإنه قسم رحمة واحدة بين أهل الأرض، فوسعتهم إلى آجالهم، وادخر عنده تسعة وتسعين لأوليائه يوم القيامة)

وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مثل ذلك، رواه والذى قبله أحمد، ورجال الجميع رجال الصحيح

وعن معاوية بن حيدة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فرحمة بين خلقه يتراحمون بها وادخر لأوليائه تسعة وتسعين). رواه الطبرانى وفيه مخيسر بن تميم وهو مجهول وبقية رجاله ثقات

وعن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قسم ربنا رحمته مائة جزء، فأنزل منها جزءا فى الأرض، فهو الذى يتراحم به الناس والطير والبهائم، وبقيت عنده مائة رحمة إلا رحمة واحدة لعباده يوم القيامة) رواه الطبرانى وإسحق بن يحيى لم يدرك عبادة وبقية رجاله رجال الصحيح غير إسحق بن يحيى .

وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو تعلمون قدر رحمة الله لاتكلتم) أحسبه قال (عليها) رواه البزار وإسناده حسن .

فى صحيح البخارى بسنده عن الزهرى فى حديث طويل عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث طويل: (حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود، فيخرجون من النار، قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار، فيقول: يا رب اصرف وجهى عن النار، قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها، فيقول: هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطى الله ما يشاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قدِّمنى عند باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذى كنت سألت؟ فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسأل غير ذلك، فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخلنى الجنة فيقول الله: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذى أعطيت؟ فيقول: يا رب لا تجعلنى أشقى خلقك، فيضحك الله عز وجل

منه، ثم يأذن له فى دخول الجنة، فيقول: تمن، فيتمنى، حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله عز وجل: من كذا وكذا، أقبل يذكره ربه، حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه. قال أبو سعيد الخدرى لأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما: إن رسول الله قال: قال الله: لك ذلك وعشرة أمثاله، قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله إلا قوله لك ذلك ومثله معه، قال أبو سعيد إنى سمعته يقول ذلك لك وعشرة أمثاله .

وإذا كان الإنذار بمتعلقاته يوجه أنظار البشر إلى خطر النار ليخلصوا أنفسهم منها فإن شذرات من أوصاف الجنة تجذب إليها - من بَعد - وجدان عباد الله المخلَصين ليكون بها نجاتهم من النار:

يقول تعالى فى تبشير المؤمنين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ١٠٣ الأنبياء

ويقول تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ ٨٩ النمل.

ويقول تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ ٤٠-٤٩ الصافات

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ٢٢- ٢٨ المطففين .

ويقول تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ ٤٦ - ٧٨ الرحمن

نعيم الجنة ماديا وروحيا

وإذا كان بعض المتفيهقين من المبشرين والمستشرقين وغيرهم يصطنع لهجة التعالى على هذه الأنواع من النعيم بينما هو فى حياته الشخصية عبدَ الدينار والدرهم والملذات الحسية، يسعى إليها ويقتنصها كلما أمكنه، فإننا بعد أن نسجل بذلك صدور هذه اللهجة عن موقف نفاقى مكشوف، نشير إلى ما جاء بالعقيدة الإسلامية من أن هذه الأنواع من النعيم ليس السقف لأنواع النعيم فى الآخرة، إنما هى لمن يطلبها، تحريرا لهم من أى شعور بالحرمان ذاقوه من قبل، تصديقا لقوله تعالى: ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ ٢٢ الطور، ولقوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ ٢١ الواقعة، ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ ٤٢ المرسلات ولقوله تعالى: ﴿ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ ١٠٢ الأنبياء، ولقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ

أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ٣١ فصلت، ولقوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ ٧١ الزخرف .

ومع ذلك فإن هذه الأنواع من النعيم إنما تأتى هكذا فى ظاهرها- تأنيسا لطالبيها- ولكنها عند التناول يجدونها من نوع نعيم الجنة، لا من نوع نعيم الدنيا، وهو شيء مختلف، وذلك معنى قوله تعالى: (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأوتوا به متشابها) ٢٥ البقرة، مضموما إليه قوله صلى اله عليه وسلم فيما رواه الترمذى بسنده، بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم " فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعلمون ") قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

رؤية الله تعالى

وليس ذاك هو السقف

ولكن تأتى ذروة النعيم فى رؤية الله تعالى

يقول تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ٢٢ – ٢٣ القيامة

ولا يصح تأويل ناظرة بمنتظرة كما يفعل بعض المتكلمين لأن النظر بمعنى الانتظار يتعلق بالقلب والخاطر لا بالعين كما فى الآية كما يشير إليه قوله تعالى (وجوه ..).

ولقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾: وفى تفسيره لهذه الآية نقل الإمام القرطبى ما رواه مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا أنه قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) وفى رواية (وزاد: ثم تلا هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾) يونس٢٦

ولقوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ يقول الإمام الشافعى: "لما حجب الكفار فى السخط دل على أن أولياءه يرونه فى الرضا "

وفى صحيح البخارى بسنده عن الزهرى فى حديث طويل قال: أخبرنى سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه حجاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك .

وتشبيه الرؤية برؤية البدر والشمس من حيث الوضوح التام والتجلى الكامل الذى لا شك فيه ولا ريب .

ومنها قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ هذا يبين أن جميع الأبصار لا تدركه ومفهومه أن بعضها يدركه "[1]

ويفرق بعضهم بين الرؤية فهى جائزة، والإدراك فهو لا يجوز، للفرق بينهما من حيث إن الرؤية لا تقتضى الإحاطة، والإدراك يقتضيه [2]

وفى بصائر ذوى التمييز للفيروزابادى (تسمى الرؤية إدراكا إذا أحاط البصر بالمرئى بجميع حدوده)

وعن ابن عباس فى تفسير الآية: لا يحيط بصر أحد بالمِلك .

وهذه الرؤية مجمع عليها عند أهل السنة فى الجملة، وإن اختلف العلماء فى بعض جزئياتها وأفرادها ومكانها .

والحق أنه يستوى فى ذلك الرجل والمرأة لعموم النص .

ويقول الإمام الغزالى: (إن الله تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار .. مرئى بالعين والأبصار، فى الدار الآخرة دار القرار)[3]

---

(١) التبصير فى الدين لأبى المظفر الإسفراييني ت ٤٧١، بتعليق الشيخ محمد بن زاهد بن الحسن الكوثرى ط مطبعة الأنوار عام ١٩٤٠ م ص ٩٤

(٢)فى لسان العرب: الدَّرَك اللحاق، والدَّرَك اسم من الإدراك، مثل اللُّحَق، والدَّرْك اللحاق والوصول إلى الشيء، والِّدراك: لحاق الفرس الوحشَ، وفرس دَرَك الطريدة يدركها، والدريكة الطريدة، والمتدارَكة غير المتواترة، والمتواتر الشيء الذى يكون هنيهة ثم يجيء الآخر، فإذا تتابعت فليست متواترة، والدَّرْك والدَّرَكُ أقصى قعر الشيء، وقال أبو عدنان: يقال: أدركوا الركية إدراكا، ودَرَك الركية قعرها الذى أدرك فيه الماء . اهـ

(٣) كتاب العقائد من كتاب إحياء علوم الدين

لقد جاء عن بعض الصحابة رضى الله عنهم كما نقل القرطبى عن المبارك متصلا أن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه قال على منبر البصرة: إن الله عز وجل يبعث ملكا إلى أهل الجنة فيقول: هل أنجزكم الله وعده؟ فينظرون الحلى والحلل والآثار والأنهار والأزواج المطهرة فيقولون: نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا فيقول الملك: هل أنجزكم وعدكم؟ ثلاث مرات، فلا يفقدون شيئا مما وعدوا فيقولون: نعم فيقول قد بقى لكم شيء، عن الله تعالى يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس ٢٦، ألا إن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تعالى.[1] ومن هنا سمى يوم الجمعة فى الجنة يوم المزيد لما يحدث فيه للمؤمنين من رؤية الله تعالى .

وفى مسند الإمام الشافعى رضى الله عنه عن عبد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبريل بمرآة بيضاء فيها وكتة إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ما هذه؟ قال: هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله تعالى بخير إلا استجيب له، وهو عندنا "يوم المزيد" قال النبى صلى الله عليه وسلم: يا جبريل ما يوم المزيد؟ قال: إن ربك اتخذ فى الفردوس واديا أفيح، فيه كثب مسك فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول الله لهم: أنا ربكم قد صدقتكم وعدى، فسلونى أعطكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيتم، ولدى مزيد، فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه، ربهم من الخير وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة اهـ .

والله أعلم .

---

(١) أنظر شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية ص ٧٠-٧١